المؤلفات الكاملة

م

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي

ذكر الله

إعداد: كريم سبحاني
ترجمة: عباس نور الدين





ذكر اللَّه

ذكر اللَّه

آية اللَّه محمد تقي مصباح اليزدي

إعداد وتقرير:
كريم سبحاني

ترجمة:
السيد عباس نور الدين

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-091-3

[٢٠١٧م - ١٤٣٨هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org



تصميم:

زينب ن ترمس

إخراج فني

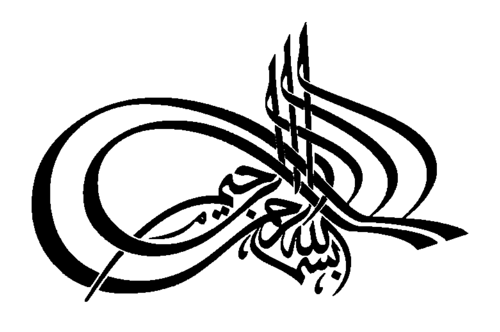
إبراهيم شحوري

طباعة

DBOUK 00961 3 336218

شركة دبوق العالمية للطباعة والتجارة العامة ش.م.م.

info@dboukart.com


بسم الله الرحمن الرحيم

إن الآراء والاتجاهات والتيارات الوارد الحديث عنها في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن توجهات **دار المعارف الحكمية** وإن كانت تقع في سياق اهتماماته المعرفية



الفهرس



مقدمة الناشر

لا يخفى على مطّلع على الأدبيات الإسلامية عمومًا ما لموضوع الذكر من أهمية ومركزية في حياة كل إنسان مؤمن، كيف وقد عجّت بالحث عليه آيات القرآن ووصايا النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ وأهل بيته الكرام عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، وإن كان من العسير في هذه العجالة الوقوف على هذه الموارد بجملتها، فإنه يكفينا لاستشراف الدلالة على أهمية المسألة الالتفات إلى قول اللّه سبحانه مخاطبًا عباده المؤمنين: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، حيث ربط سبحانه ذكرَه عبادَه – وهو العلة الأساس لأصل وجودهم أولًا، وبقائهم تاليًا – بذكرهم إيّاه، وهذا أمر ذو دلالات عظيمة ينبغي التأمل فيها طويلًا.

وانطلاقًا من الأهمية الكبرى لمسألة الذكر، انبرى كثير من علماء الأخلاق إلى تقديم مساهمات يعالجون فيها المسألة ويحددون أُطُرها ومدياتها ومتعلّقاتها، ومن بين هؤلاء كان مؤلف كتابنا هذا آية اللّه الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي، الذي سعى في كتابه هذا إلى تسليط الضوء على الدور المركزي الذي يلعبه ذكر اللّه في حياة الفرد، وما يتركه من أثر في حياة الإنسان المؤمن، عبر ما يشيعه من حالة السكينة والطمأنينة الضروريّة لبقائه وارتقائه وتكامله الذي هو غاية خلقه.

يباشر الشيخ مسعاه في الوقوف على مفهوم الذكر وبعض من إطلاقاته واستعمالاته، ثم ينتقل للحديث عن حقيقته، وكيفية تحوله إلى أمر واقعي إذا تجلّى في باطن الإنسان وقلبه.

ثم يتطرق إلى أنواع الذكر، ويوضح أنّ الذكر لا ينحصر بالذكر اللفظي، بل ينقسم



إلى ذكر بالقلب، وذكر باللسان، وكلّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكر عن لا نسيان بل عن إدامة الحفظ.

هذا، ويستعرض الشيخ مراتب الذكر، ويدل على أعداد لا تحصى منها، وهي بحسب الأفراد واستعداداتهم لتلقي الفيوضات، وينبه إلى أنّ التكامل الحقيقي للإنسان لا يمكن أن يتحقق من دون ذكر اللّه، ويؤكد على الأهمية الكبرى للجانب الكيفي لعملية الذكر وعلى دور المداومة عليه في ضبط النفس بالتوجّه إلى اللّه.

وينتقل الشيخ بعدها إلى تعداد أقسام الذكر ويوضحها، حتى إذا ما انتهى، أوضح للقارئ كيفية الاستفادة من حقيقة الذكر وإدراك المحضر الإلهي، والشروط التي يجب مراعاتها حتى يتسنى للعبد تحصيل الفوائد التي هي أعمق من تلبية حاجاته كالطعام والشراب وغيرها من الأمور الدنيويّة الزائلة، فمن يعرض عن الذكر لا يخسر فقط ما سيعطاه بل سيصاب بأمراض متعدّدة كنسيان النفس والعمى في الآخرة وتسلّط الشيطان عليه وسيسلب الطمأنينة الحاصلة من ذكر اللّه وسيكون ذلك مدعاةً للقلق والخوف والاضطراب.

وبهذا، يصل الشيخ إلى تأكيد أهمية الذكر وضرورته في كلّ زمان ومكان، بحيث يكون حال العبد كحال العاشق الذي لا يغفل عن معشوقه، لأنّ أهل الذكر الحقيقيين الذين ذاقوا حلاوة الأنس باللّه لا يوجد في قلوبهم محلٌّ لحبّ غيره تعالى، فمن شاهد جمال اللّه وأنس بقربه لا يمكن أن يأنس بعد ذلك بأحد. جعلنا اللّه وإياكم من الذاكرين حقًّا.



ذكر الله



دارسة مفهوم الذكر

حين يأتي الحديث عن ذكر اللّه ومطلوبيّته، ووصف أولياء اللّه المشغولين دومًا بذكره، فلا يمنعهم أيّ عمل عن ذلك، قد يتطرّق إلى الذهن في البداية صورة أشخاص لا يفتأون يحرّكون شفاههم، وينطقون بذكر اللّه، وتكون ألسنتهم مشغولةً بتلاوة الأذكار والأوراد. أي إنّ عُرف الناس يعتبر الذكر منحصرًا بالذكر اللفظيّ، في حين أنّه، بحسب ما يُستفاد من الآيات **والقرآن الكريم**، سعة وشموليّة وعمق الذكر أبعد من ذلك. لذلك، من الضروريّ أن نبحث قليلًا حول مفهوم الذكر.

يعدّد الراغب الأصفهاني معنيَين للذكر، فيقول: «الذكر تارةً يُقال ويُراد به هيئةٌ للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ، إلّا أنّ الحفظ يُقال اعتبارًا بإحرازه، والذكر يُقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يُقال لحضور الشيء في القلب أو القول. ولذلك قيل الذكر ذكران: ذكرٌ في القلب، وذكرٌ باللسان، ولكلّ واحدٍ منهما ضربان، ذكرٌ عن نسيان، وذكرٌ لا عن نسيان، بل عن إدامة الحفظ»[١].

وقد ذكر العلّامة المجلسي، رحمه اللّه، حول مفهوم الذكر التالي: «الذكر حضور المعنى للنفس، وقد يسمّى العلم ذكرًا، والقول الذي فيه المعنى الحاضر للنفس أيضًا يسمّى ذكرًا»[٢].

---

(١) الراغب الأصفهاني، **مفردات في غريب القرآن** (دفتر نشر الكتاب، الطبعة ٢، ١٤٠٤هـ)، الصفحة ١٧٩.

(٢) العلّامة المجلسيّ، **بحار الأنوار** (بيروت: مؤسّسة الوفاء، الطبعة٢ المصحّحة، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م)، الجزء ٦٦، الصفحة ٣٧.



استعمال الذكر في مقابل الغفلة والنسيان

من جملة استعمالات كلمة الذكر إطلاقها مقابل الغفلة والنسيان. وقد ذُكر هذان الاستعمالان في القرآن. وبالالتفات إلى هذَين الاستعمالَين، يجب تحديد التفاوت بينهما؛ فالعلّامة الطباطبائي، رحمة اللّه عليه، وفي ذيل الآية ١٥٢ من سورة **البقرة**، يقول في هذا المجال:

«ثم إنّ الذكر ربما قابل الغفلة كقوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[١]، وهي انتفاء العلم بالعلم، مع وجود أصل العلم، فالذّكر خلافه، وهو العلم بالعلم، وربما قابل النسيان، وهو زوال صورة العلم عن خزانة الذهن، فالذكر خلافه، ومنه قوله تعالى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾[٢]، وهو حينئذٍ كالنسيان معنى ذو آثار وخواص تتفرع عليه، ولذلك ربما أطلق الذكر كالنسيان في موارد تتحقق فيها آثارهما وإن لم تتحقق أنفسهما، فإنك إذا لم تنصر صديقك وأنت تعلم حاجته إلى نصرك فقد نسيته، والحال أنّك تذكره، وكذلك للذّكر»[٣].

اتّضح أنّ الذكر يُستعمل في الموضع الذي يتوجّه فيه قلب الإنسان إلى شيءٍ ما، سواء توجّه إليه من دون أن يكون قد توجّه إليه سابقًا، أو أنّه كان متوجّهًا إليه سابقًا، ثمّ نسيه وعاد وتوجّه إليه مجدّدًا. أحيانًا يحصل الأمر بهذه الصورة؛ حيث إنّه بعد غفلته عن الشيء، يخرج من حالة الغفلة هذه، ويعود ويتوجّه إليه من جديد. ليس من الضروريّ كي يصدق مفهوم «الذكر» أن تتقدّم عليه الغفلة والنسيان، بل إنّ الذكر يُستعمل في مورد مطلق الاستحضار والتوجّه والانتباه.

لأجل بيان هذه القضيّة، من اللازم أن نتأمّل في سورة **الكهف**، فقبل الآية ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، حيث يأمر اللّه سبحانه وتعالى نبيّه الأكرم أن لا يقوم بشيءٍ يريد أن يفعله في اليوم التالي إلّا بعد أن يشاء اللّه، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤]، فهذه الوصيّة من جهة أنّه لا يوجد أي إنسان، حتّى لو كان النبيّ

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **الكهف**، الآية ٢٤.

(٣) محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن** (قم: مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليان، الطبعة ٢، ١٩٧٣ م)، الجزء ١، الصفحة ٣٣٩.

(٤) سورة **الكهف**، الآية ٢٤.



الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، له تلك الاستقلاليّة في مقام العزم وأخذ القرار، فإذا لم يشأ الله، لا يمكن لأيّ إنسانٍ أن يحقّق ما يريد.

والنقطة الأخرى في هذه الآية، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾، هي قضيّة نسيان النبيّ، التي أُشير إليها في هذه الآية، حيث يُطرح هذا السؤال، ألم يكن النبيّ معصومًا؟ فلو طبّق اعتقادنا، وما يُستفاد من الأدلّة القطعيّة، فإنّ النبيّ والمعصومين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مصونون من النسيان والغفلة، فلو كان النسيان يتطرّق إلى ذهن النبيّ، لما أمكن للناس أن يؤمنوا بأقواله وأفعاله إيمانًا كاملًا.

والإجابة عن هذا السؤال هي: في الكثير من الآيات القرآنيّة، وإن كان الخطاب متوجّهًا بحسب الظاهر إلى النبيّ، لكنّ المقصود به هو عامّة الناس، وبحسب المثل العربيّ المشهور، فإنّ الله تعالى، في مثل هذه الموارد، استخدم أسلوب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة». مثلما يُقال عندنا في اللغة الفارسيّة «يحدّث الباب ليسمع الجدار».

إطلاقات الذكر واستعمالاته

بمعزل عن استعمال الذكر في ذاك المعنى اللغويّ المذكور، فلهذه الكلمة إطلاقات أخرى في **القرآن الكريم** لها نوع من الارتباط بالمعنى اللغويّ. وهنا نقوم بدراسة هذه الاستعمالات المختلفة للذكر كما جاءت في **القرآن الكريم**:

١. القرآن الكريم

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾[1]، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[2]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[3]. يمكن القول إنّ علاقة السببيّة بين **القرآن** وذكر الله، أدّت إلى استعمال الذكر في مورد القرآن بحسب هذه الآيات المذكورة، وذلك لأنّ آيات **القرآن**، هي سببٌ وعلّةٌ للذكر الحقيقيّ، وهو التوجّه إلى الله تعالى؛ وبالالتفات إلى وجود مثل هذه العلاقة، فقد استُعمل الذكر أيضًا، في مورد الكتب السماويّة وبالخصوص **التوراة**.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٥٨.

(٢) سور **النحل**، الآية ٤٤.

(٣) سورة **الحجر**، الآية ٩.



٢. الوحي

﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾[١].

٣. الكتاب السماويّ

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٢].

٤. خصوص التوراة

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾[٣].

٥. رسول الله (ص)

﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾[٤].

في الآيات السابقة، تكون كلمة «رسولًا» بحسب قواعد النحو عطف بيان، أو بدل لكلمة «ذكرًا»، ولعلّه يمكن جعل مفاد تلك الكلمة مستقلًّا عن الآية ١٠ وفق تفسيرٍ آخر، ومن خلال تقدير جملة «وأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ»، يكون التقدير على هذا النحو: «وأَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا». أمّا التفسير الأوّل الذي يلاحظ الارتباط التام بين الآيتَين ويجعل «رسولًا» على نحو عطف البيان أو بدل لكلمة «ذكرًا»، فتُطلق كلمة الذكر على النبيّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ، ويكون ذلك متوافقًا مع سياق الآيات وظاهرها، وطبق هذا التفسير فإنّ علاقة السببيّة والعلّيّة، تؤدّي إلى إطلاق «الذكر» على النبيّ، وتصحّح هذا الإطلاق، لأنّ وجوده المقدّس، هو من أبرز وسائل ذكر اللّه، وأكثرها تأثيرًا.

---

(١) سروة **القمر**، الآية ٢٥.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ٧.

(٣) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠٥.

(٤) سورة **الطلاق**، الآيتان ١٠ و١١.



٦. صلاة الجمعة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾(١).

٧. الذكر بمعنى الشرف والافتخار

﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾(٢).

٨. الذكر بمعنى الحفظ والاستحضار في الذهن

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾(٣).

أنواع الذكر

يُقسّم الذكر بحسب العادة إلى فئتَين:

١. الذكر اللفظيّ.

٢. الذكر القلبيّ.

يضيف البعض الذكر العمليّ على هذين القسمَين. يبدو أنّ هذا التقسيم قد اشتُقّ في الأصل من الآيات والروايات.

يجب الالتفات إلى أنّ «الذكر» كلفظ ليس له قيمة كبيرة بحدّ ذاته، فالهدف من اللفظ هو التوجّه إلى المعنى وتأثيره في القلب. فإذا كان «الذكر» بمعنى الاستحضار في الذاكرة، فيكون بمعنى التذكّر، وفي مورد الذكر اللفظيّ يكون صادقًا فقط حين يكون اللسان متوافقًا مع القلب. علاوة على ذلك، يقول اللّه تعالى:

---

(١) سورة **الجمعة**، الآية ٩.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ١٠.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٦٣.



﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾(١)، أي إنّ ذكر اسم اللّه يتلازم مع التبتّل، والمقصود من التبتّل هو انحصار توجّه الإنسان إلى اللّه.

يعتبر المرحوم المجلسي كلّ حديثٍ ذي توجّهٍ إلهيّ ذكرًا للّه.

بعد تقسيم الذكر إلى الذكر اللفظيّ والذكر القلبيّ، يقول: إنّ الذكر اللفظيّ هو كلّ حديثٍ يحوز على جهة إلهيّة، مثل: الدعاء و**القرآن** والأبحاث الفقهيّة، وتفسير الأخبار والروايات وأمثالها.

ثمّ يقسّم الذكر القلبيّ إلى نوعَين:

أ. التفكّر في أدلّة الأحكام الإلهيّة وصفات الباري تعالى، وتذكّر نعمه، والتفكّر في فناء الدنيا.

ب. التوجّه إلى العقاب والثواب الأخرويّ والخوف من اللّه: ويكون ذلك حين يوجّه اللّه تعالى إلى الإنسان أمرٌ أو نهيٌ، فيعمل طبق هذا التكليف الإلهيّ.

أُشير في الروايات إلى مرحلة من الذكر، والتي يمكن الإشارة إليها على أنّها الذكر العمليّ، وقد أشار المرحوم المجلسي في النوع الثاني من الذكر إليها، وهنا يجب إضافة أنّ الذكر القلبيّ ليس له أي نوع من الظهور والبروز الخارجيّ، وإنّما يكون الإنسان متوجّهًا إلى اللّه فقط. فلو كان في الظاهر مشغولًا بعملٍ آخر، فإنّه يكون في أعماق قلبه متوجّهًا إلى اللّه.

يقول الإمام الصادق عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: «مَنْ قَالَ لاَ إِلهَ إِلّا اللّهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِخْلاصُهُ أَنْ يَحْجُزَهُ لاَ إِلهَ إِلّا اللّهُ عَمَّا حَرَّمَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ»(٢). من خلال التدقيق في الرواية المذكورة، ندرك أنّ الإمام قد أشار إلى ثلاث مراحل للذّكر:

المرحلة الأولى: هي قول «لا إله إلا اللّه»، الذي يُعدّ ذكرًا لفظيًّا.

المرحلة الثانية: هي تلازم الذكر مع الإخلاص في النيّة، وهو الذكر القلبيّ.

---

(١) سورة **المزمّل**، الآية ٨.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء٨، الصفحة ٣٥٩.



المرحلة الثالثة: هي أن يترك هذا الإخلاص أثره على سلوك الإنسان، ويمنعه من ارتكاب المعصيّة، وهذا هو الذكر العمليّ.

وقد بيّن رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هذا الذكر العمليّ بصريح القول في إحدى وصاياه لأمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، حيث يقول:

«يا عليّ ثلاث لا تطيقها هذه الأمّة: المواساة للأخ في ماله، وإنصاف الناس من نفس، وذكر اللّه على كل حال، وليس هو سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلاّ اللّه، واللّه أكبر، ولكن إذا ورد على ما يحرم عليه خاف اللّه عزّ وجلّ عنده وتركه»[١].

ومن الآيات التي أُشير فيها إلى الذكر اللفظيّ والذكر القلبيّ، الآية ٢٠٥ من سورة **الأعراف**، ففيها يقول اللّه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾؛

أشير في الآية المذكورة إلى قسمَين من ذكر اللّه؛ أحدهما في القلب والآخر باللسان؛ ويمكن الاستفادة أنّ الذكر اللفظيّ ليس ممدوحًا إذا كان بصوتٍ مرتفع، ولا ينسجم مع مقام العبوديّة وإظهار المذلّة والحقارة بين يدي اللّه. ففي **القرآن الكريم**، نقرأ هذه الآية في مورد الصلاة: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾[٢].

وقد جاء في روايةٍ أخرى أيضًا، أنّ رسول اللّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حين كان في إحدى الغزوات مع أصحابه، وصلوا إلى صحراءٍ مخيفةٍ، وصادف أن كانت تلك الليلة شديدة الظلمة، فقام أحد أصحابه وكبّر بصوتٍ مرتفع، «فنهاه النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وقال: إنّكم لا تدعون غائبًا بعيدًا»[٣].

«والتضرع من الضراعة، والخيفة وهو التملق بنوع من الخشوع والخضوع، والخيفة بناء نوع من الخوف، والمراد به نوع من الخوف يناسب ساحة قدسه تعالى ففي التضرّع معنى الميل إلى المتضرَّع إليه والرغبة فيه والتقرب منه، وفي الخيفة

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٩٠، الصفحة ١٥١.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ١١٠.

(٣) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ٨، الصفحة ٣٨٢.



معنى اتقائه والرهبة والتبعد عنه، فمقتضى توصف الذكر بكونه عن تضرّع وخيفة أن يكون بحركة باطنية إليه ومنه كالذي يحبّ شيئًا ويهابه فيدنو منه لحبه ويبتعد عنه لمهابته»[1]. كما أنّه يُستفاد من هذه الآية الشريفة الذكر القلبيّ واللفظيّ.

حقيقة الذّكر

إنّ حقيقة الذكر تصبح واقعيّةً إذا تجلّت في باطن الإنسان وقلبه، أمّا الذكر اللفظيّ فهو ليس سوى انعكاسٍ خارجيٍّ لتلك الحقيقة الباطنيّة؛ فذكر اللّه ليس مجرّد تكرار كلماتٍ، دون أن يكون له أدنى دورٍ أو أثرٍ في حياة الإنسان، أو دون أيّ توجّهٍ لمعانيه ومفاهيمه الراقية. كيف يمكن أن يكون الإنسان ذاكرًا لمحبوبٍ، وفي الوقت نفسه يعاديه من الناحية العمليّة؟ وكيف يمكن أن ينسجم ذكر اللّه مع تلك الأعمال، التي تُعدّ في واقع الأمر عداوةً للّه؟ فالتصوّر السطحيّ للذكر عبارة عن تلك الأذكار اللفظيّة، والالتفات إلى استعمالاته في الرّوايات والآيات يهدينا إلى أنّ المعنى الحقيقيّ للذكر، يكون عبر التوجّه الباطنيّ والقلبيّ؛ وأنّ تذكّر أيّ شخصٍ ليس من مقولة الألفاظ.

إنّ إطلاق «الذكر» على الذكر اللفظيّ، إنّما كان في الواقع بسبب أنّ اللفظ يكون كاشفًا عن المعنى، ويحكي عمّا يدور في خلجات القلب؛ فوجود علاقة الدال والمدلول بين اللفظ والمعنى، هو الذي أوجب إطلاق «الذكر» على الذكر اللفظيّ على سبيل المجاز؛ وكنتيجة لكثرة الاستعمال، اتّخذ هذا الإطلاق وهذا الاستعمال جهة الحقيقة، ولم يعد يحتاج إلى قرينة.

بناءً عليه، يُستعمل الذكر في الحقيقة على نحوين: أحدهما بمعنى الذكر القلبيّ، والآخر بمعنى الذكر اللسانيّ. والناظر بدقّة للموضوع يدرك بأنّ الذكر اللسانيّ، لا يمكن أن يتيسّر من دون أي مرتبة من التوجّهات القلبيّة، لأنّ الذي يريد أن يقول ذكرًا مثل ذكر: «لا حول ولا قوّة إلّا باللّه» أو «سبحان اللّه والحمد للّه»، فيجب عليه أوّلًا أن يكون لديه نحوٌ من التوجّه، وإن كان قليلًا، إلى اللّه والتكليف والثواب والعقاب الإلهيَّين، من أجل أن ينبعث فيه ذاك الدّافع أو السلوك المستحبّ.

---

(١) المصدر نفسه.



يحوز الذكر اللفظيّ على القيمة المطلوبة في حال نبع من القلب، أو كان وسيلةً للوصول إلى الذكر القلبيّ، وفي هذه الحالة سيكون مؤثّرًا أيضًا في العمل. فالذي يسعى ليكون ذاكرًا للّه، لا شكّ أنّه من الناحية العمليّة سيتميّز عن الآخرين. يقول الإمام الصادق، عليه السلام، بهذا الشأن:

«مِنْ أَشَدِّ مَا فَرَضَ اللّهُ عَلى خَلْقِهِ ذِكْرُ اللّهِ كَثِيرًا. ثُمَّ قَالَ: أمَّا لاَ أَعْني سُبْحَانَ اللّهِ والْحَمْدُ لِله وَلاَ إِلهَ إِلّا اللّهُ وَاللّهُ أَكْبَرُ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ، وَلَكِنْ ذِكْرُ اللّهِ عِنْدَمَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً عَمِلَ بِهَا وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً تَرَكَهَا»[1].

بالالتفات إلى أهميّة الذكر القلبيّ ومكانته، ذكر اللّه في كتابه العزيز، أنّ غاية إقامة الصّلاة وهدفها، هو الذكر والتوجّه إلى اللّه. ففي مخاطبة كليمه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يقول اللّه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[2].

إذا اعتُبرت الصلاة عبارةً عن مركّبٍ من أعمالٍ متعدّدة، كالركوع والسجود والأذكار اللفظيّة، فلازم ذلك أن تكون الغاية جزءًا من الأعمال، أي أن يكون مجموع إقامة الصلاة، بما تتضمّنه من أعمال وأذكار وأوراد، بهدف الاستفادة من ذاك الذكر الذي يُعدّ قسمًا من الصلاة. بالمبدأ، هذا الأمر ليس خاطئًا، لكنّه لا ينسجم مع البلاغة في الحديث، لهذا فهو ليس مقبولًا برأي الأدباء؛ بحيث يكون الجزء من الكلّ، والقسم من المركّب، هو غاية ذاك الكلّ والمركّب. من الواضح أيضًا، أنّ التوجّه الذي جُعل غايةً لإقامة الصلاة، هو التوجّه القلبيّ العميق والقويّ؛ وليس التوجّه الضعيف والسطحيّ، الذي هو لازم الإقدام على كلّ عبادة. لو لم يتحقّق للإنسان أيّ نوع من التوجّه إلى اللّه، والتفكير بذكره، حتّى لو كان هذا التوجّه مبهمًا وضعيفًا، فلن يحصل له ذاك الدّافع لتلاوة الذكر وأداء الصلاة. في الأساس، إنّ شرط صحّة الصلاة هو قصد التقرّب، وطاعة أمر اللّه؛ من هنا، لا مجال أن تخلو عبادته من التوجّه إلى اللّه.

بالالتفات إلى ما قيل، إنّ الذكر الذي جُعل عنوان غاية الصلاة في هذه الآية الشريفة، ليس هو الذكر اللفظيّ، ولا ذاك التوجّه اللازم للشروع في الصلاة، ومن

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦٣.

(٢) سورة **طه**، الآية ١٤.



أجل النيّة؛ بل الغاية الأساسيّة للصّلاة، هي عبارة عن التوجّه القلبيّ العميق إلى اللّه، الذي سيكون ثمرة الصلاة ويترتّب عليها.

مراتب تحصيل الذكر

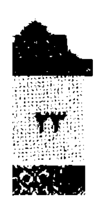
اتّضح أنّ الذكر الواقعيّ هو التوجّه القلبيّ إلى اللّه؛ وتمّت الإشارة إلى أنّ الذكر اللفظيّ لا يمكن أن يكون خاليًا بالكامل من الذكر القلبيّ والتوجّه الباطنيّ، إلّا أنّ هذا التوجّه لا يكون دومًا متساويًا في جميع الأفراد؛ أحيانًا يكون ضعيفًا جدًّا، وفي بعض الأحيان يكون قويًّا للغاية، حيث إنّ الذي يكون منشغلًا بالذكر سيكون متوجّهًا توجّهًا كاملًا إلى ما يقول، ويُدرك حضور اللّه بكلّ وجوده.

بناءً عليه، إنّ للذكر القلبيّ مراتب لا تُحصى، لا بمعنى أنّ التوجّهات القلبيّة ستكون دومًا في جميع الأفراد على نحوٍ واحد، ودون وجود أي تفاوت فيما بينها؛ فالأفراد الضعفاء، إنّما ينالون تلك المراتب النازلة للذكر، أمّا مراتبه العالية فهي عبارة عن التوجّه التام والكامل إلى ذات الحقّ وأسمائه وصفاته، ومثل هذا لا يتيسّر إلّا لخاصّة أولياء اللّه، والذين اجتباهم اللّه واصطفاهم. مع العلم أنّ المرتبة النازلة للذكر، قد تكون أحيانًا سببًا وأرضيّةً ممهّدةً للوصول إلى مراتبه العالية، فالذكر ساعتئذٍ يصبح وسيلةً، ويكون غاية وهدفًا. وقد أُشيرَ إلى هذه الحقيقة في بعض الأدعية والمناجاة، كما جاء في المناجاة الشعبانيّة: «إلهي وَأَلْهِمْني وَلَهًا بِذِكْرِكَ إلى ذِكْرِكَ»[1].

إنّ كون بعض مراتب الذّكر وسيلةً للوصول إلى المراتب الأعلى، يدلّ على أنّه لأجل الوصول إلى المراتب العليا، يجب البدء من المراتب الأدنى؛ فعلينا أن نبدأ من الذكر اللفظيّ، وإذا كان توجّهنا إلى اللّه أثناء التلفّظ بالأذكار ضعيفًا، فلا نتركه. ففي بعض الأحيان، وأثناء الدعاء والذكر، نكون بلا رمقٍ وبلا روح، ولا نحصل على التوجّه الكافي إلى مبدأ الوجود، فيأتي الشيطان ويوسوس لنا أن اتركوا هذا الذكر، لأنّ الذكر والدعاء اللذين لا يتمتّعان بالتوجّه القلبيّ الكافي إلى اللّه ليسا مفيدَين، لأنّهما كالجسم بلا روح، والميّت الذي لا فائدة منه. بعض الذين يعتبرون أنفسهم

---

(١) عباس القمي، **مفاتيح الجنان**، المناجاة الشعبانية.



من المثقّفين، قد ابتُلوا بمثل هذه الانحرافات والمزلّات، ويكرّرون مثل هذا الكلام، فيقولون فيما يتعلّق بالصلاة: الصلوات التي يؤدّيها أغلب الناس ليست سوى لقلقة لسان، وهي خالية من التوجّه إلى اللّه وإلى محتوى الصلاة، ولا فائدة منها، فيكون أداؤها وعدمه سيّان. مثل هذا التصوّر إنّما هو ناشئٌ من وسوسة الشيطان؛ فهؤلاء غافلون عن أنّ هذا الذكر والصلاة اللذان هما بحسب الظاهر فاقدان للروح، وخاليان من التوجّه الكافي، وإن كانا لا يُعدّان شيئًا أمام الذكر المفعم بالتوجّه والصلاة التي فيها حضور قلب كافٍ، لكن لما تمّت تأديتهما لإظهار العبوديّة للّه، فإنّهما قابلان ليمنحا الروح صفاءً ونوارنيّةً، ويكونا سببًا للوصول إلى المراحل الأعلى من التوجّه إلى اللّه؛ لهذا، لا ينبغي أن يُعدّا فاقدَين للثّمر، وخاليَين من الفائدة، فيتمّ تركهما تحت تأثير الوساوس الشيطانيّة.

كذلك الأمر، لو لم يكن هناك توجّهٌ كافٍ أثناء قراءة **القرآن**، فينبغي الحذر من الوساوس والإلقاءات الشيطانيّة الموحية بأنّ قراءة **القرآن** من دون التوجّه إلى المحتوى وإدراك المعنى لا فائدة منها. صحيحٌ أنّ هذه القراءة تُعدّ مثل قطرةٍ في بحر إذا قورنت بقراءة أولياء اللّه، لكن حين يفتح الإنسان **القرآن** باحترام مركّزًا توجّهه إلى اللّه وإلى جهة إظهار العبوديّة، ويقرأ آياته ويمرّ عليها، فإنّه يكون قد قام بعملٍ مليء بالثمار والفائدة. من الطبيعيّ، كما أنّه ينبغي الاهتمام بالأذكار اللفظيّة فلا تُترك، فلا ينبغي الاكتفاء بها؛ فيجب أن نسعى بهمّة عالية للعبور من الأذكار اللفظية إلى الأذكار القلبيّة، وأن يزداد توجّهنا إلى الأسماء والصفات الإلهيّة.

من الجدير ذكر نقطة هنا، وهي أنّه في الغالب، وبما يتناسب مع أحوال الإنسان، يتوجّه بواسطة اسمٍ أو اسمَين إلى ذات الحقّ تعالى؛ في حين، أنّ دعاء الجوشن الكبير القيّم والمليء بالمعاني والمحتوى، على سبيل المثال، يوجّهه إلى ذات الباري من خلال ذكر ألف اسم من أسمائها. فمن المسلّم به، أنّ هذا التوجّه أوسع من ذاك التوجّه، الذي يحصل من خلال السير باسمٍ أو اسمَين من أسماء حضرة الحقّ. من هنا، من المناسب لأجل الارتباط باللّه، الاستفادة من سائر أدعية ومناجاة المعصومين بدل التركيز على مناجاةٍ واحدة أو عددٍ منها.



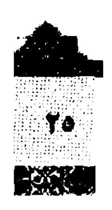
الردّ على الآراء المنحرفة بشأن الذكر

كالكثير من المعارف الإسلاميّة والقرآنيّة والمطالب الحقّة، يوجد انحرافاتٍ وأفكار معوجّة بشأن الذكر، وهناك إفراطٌ وتفريطٌ في مجالَي الفهم والعمل. من جانبٍ، نشاهد أفرادًا سطحيّين، يحملون السبحة، ويتلون الذكر من دون التوجّه إلى المحتوى والمعنى، بل وحتّى من دون التوجّه إلى اللّه، فقط من باب العادة. إنّ مثل هذه الفئة التي ليس لديها أيّ توجّهٍ إلى المعنى والمحتوى، تظنّ أنّها بمجرّد التلفّظ بالأذكار والأوراد، قد قامت بتكليفها، وبسبب ذلك ستصبح من أهل السعادة وحسن العاقبة، وسوف ترتفع مشاكلها، وتُغفر ذنوبها.

في المقابل، هناك من يُخضع أصل الذكر للسؤال والتشكيك، ويعتبر أنّ كلّ ما قيل بشأن الذكر هو من اختلاقات أذهان أشخاصٍ يدّعون القداسة، ويقولون: إنّ هؤلاء اخترعوا هذه الأذكار، ويقومون بها، وينشغلون بالدعاء والذكر من أجل التنصّل من مسؤوليّاتهم ووظائفهم الاجتماعيّة؛ في حين أنّ هذا العمل لا يكون بديلًا عن الفرائض الواجبة، ولا يتحقّق بترك الواجب أيّ تقرّب؛ فمثل هذان الاتّجاهان منحرفان وخاطئان.

طبق ما ذكرناه في باب حقيقة الذكر، إنّ حقيقة الذكر ترتبط بالقلب والباطن، وتكون الأذكار اللفظيّة حاكيةً عن حالة التوجّه القلبيّ إلى اللّه، ولهذا تُسمّى بالذكر. من هنا، إذا لم يكن الذكر اللفظيّ حاكيًا عن التوجّه القلبيّ، ومصحوبًا بالتوجّه الباطنيّ، فإنّه يكون على حدّ لقلقة اللسان. كيف يمكن أن يكون الإنسان مشغولًا بذكر اللّه حقًّا أثناء الذكر اللفظيّ، وعينه متوجهةً إلى غير المحرم، أو يستمع إلى الموسيقى، أو يتآمر على أخيه المؤمن؟ فمثل هذا الشخص غريبٌ، وبعيدٌ عن ذكر اللّه؛ وهو يقضي أوقاته بحسب العادة في لقلقة اللسان، دون أن يكون له أيّ توجّه إلى معنى الذكر؛ أو أن ينبعث منه أيّ توجّهٍ قلبيّ إلى اللّه. هو في الواقع بهذا العمل، يسخر من المعارف والقيم الإلهيّة، ويتلاعب بها، ويخدع نفسه والآخرين.

يتصوّر البعض أنّ تكرار سلسلة من الأذكار والألفاظ، دون التوجّه إلى المحتوى والمعنى الموجود فيها، ودون التوجّه القلبيّ إلى اللّه، سوف يوصلهم إلى الكمال والسموّ، وأنّ عملهم هذا أفضل من الجهاد في سبيل اللّه؛ وهم غافلون عن أنّ الذكر الذي يؤدَّى طبق العادة، ولا يتجاوز حدّ لقلقة اللسان، لا يمنحهم أيّ فائدة،



ولا يضفي على أحوالهم شيئًا. يصبح الذكر ذا قيمة إذا تلازم مع التوجّه، وحضور القلب، وحبس الإنسان عن المعصية والذنب؛ فالذي ينشغل بالمعصية وارتكاب الذنوب، لا يمكن أن ينهض بالذكر الواقعيّ، كما أنّه ليس من الممكن أن تصدر المعصية من ذاك الذي يتوجّه إلى اللّه، ويرى اللّه حاضرًا وناظرًا. فحين تصدر المعصيّة من الإنسان، يكون ذلك بسبب الغفلة عن اللّه، ونسيانه له؛ في مثل هذه الحالة، لا فرق بين انشغال لسانه بالذكر أو عدمه. من هنا، وحسب مضمون بعض الروايات، إنّ الذاكر للّه هو الذي يطيع اللّه، والغافل هو الذي يعصي اللّه، وإن كانت صلواته وصيامه كثيرةً. إنّ الذي يقرأ **القرآن** كثيرًا، ويصوم، ويصلّي، وفي الوقت نفسه يعصي؛ هو شخصٌ غافلٌ؛ إنّما يقوم بهذه الأعمال بشكل اعتياديّ وروتينيّ. في حين أنّ الذاكر الحقيقيّ، هو الذي يكون متوجّهًا إلى اللّه بقلبه، ومطيعًا له في عمله، ولا يقترب من المعصية؛ فالعصيان لا ينسجم مع التوجّه إلى اللّه والإيمان به. على خلاف تصوّر الأشخاص المتظاهرين بالقداسة، والمنحرفين في أفكارهم، والذين ينظرون بطريقةٍ جاهلةٍ إلى المعارف الإلهيّة، ويفسّرون كلّ شيءٍ حسب ميولهم وسلائقهم، إنّ ذكر اللّه ليس مجرّد تلفّظ سريع بمجموعة من الألفاظ، وتكرارها من دون توجّهٍ قلبيّ؛ فالذكر الذي يؤدّى من أجل التظاهر وخداع الناس ليس ذكرًا. فالذكر الذي يبعث على الكمال، ويعرج بالإنسان، ومُدح في الآيات والروايات، هو ذاك التوجّه القلبيّ إلى اللّه؛ وليس الذكر الذي لا يتجاوز لقلقة اللسان.

من جانبٍ آخر، كما أشرنا سابقًا، إنّ بعض الأجانب عن الثقافة الإسلاميّة، يعتبرون أنّ الذكر يخلو من الفائدة والواقعيّة، ويعتقدون بأنّ المتقدّسين والمتديّنين هم من اختلق هذه الأذكار، من أجل الترويج لأسواقهم وبضاعتهم. هذه هي نظرة أولئك الذين ليس لديهم ثقافة ورؤية إسلاميّة، وهم جاهلون بحقيقة الإنسان وكماله؛ فهم لا يعرفون القيمة الواقعيّة للإنسان، ويتصوّرون أنّ القيم الإنسانيّة هي القيم التي يطرحها الماديّون. على أساس هذه النظرة، إنّهم يعتبرون الذكر والعبادة سلسلة من الآداب والمراسم، التي ليس لها أي دور في الكمال الواقعيّ للإنسان. إنّ مواجهة مثل هؤلاء الأشخاص يجب أن تكون مبنائيّةً؛ فينبغي أوّلًا أن نعرض عليهم الإسلام و**القرآن**؛ لو كانوا يعتقدون بالإسلام و**القرآن** حقيقةً، من الطبيعيّ أن يقبلوا بلوازم هذا الاعتقاد. من جملة هذه اللوازم، الاعتقاد بالعبادة والدعاء وذكر



اللّه؛ أمّا إذا كانوا لا يقبلون بالإسلام **والقرآن**، فيجب أن نثبت لهم حقيقة الإنسان وكماله، ومسار رشده وتكامله عن طريق الأدلّة العقليّة.

لمزيدٍ من التوضيح، نحن نعتقد أنّ الذكر هو حركةٌ نحو اللّه، والكمال النهائيّ للإنسان، ووسيلةٌ لأجل الوصول إلى مقام القرب الإلهيّ. إنّ هذا الاعتقاد مبنيٌّ على جملة من المقدّمات والأصول الموضوعيّة القطعيّة والمسلّمة، والتي تتطلّب دراستها فرصةً أكبر، ولا ينبغي بالطبع أن نجتنب دراسة ونقد تلك الأصول والاعتقادات المبنائيّة. من جملة تلك الأصول الموضوعة، هو الاعتقاد بأنّ هناك موجودًا باسم «اللّه»، واجدٌ وموجدٌ لكلّ كمال. كما أنّ من جملة تلك الأصول، أنّ للإنسان روحًا تشكّل حقيقته، وأنّ لتلك الروح تكاملًا. فالتكامل الحقيقيّ للإنسان يرتبط بروحه، أمّا البدن فهو مجرّد آلةٍ لتكامل الروح. بناءً على الثقافة الإسلاميّة والقرآنيّة، إنّ لكمال الإنسان مقامٌ يُسمّى بالقرب الإلهيّ؛ وعلى أساسه يكون الاعتقاد بأنّ العمل مفيدًا لكمال الإنسان وسعادته، إذا كان بنيّة التقرّب إلى اللّه. يبدو واضحًا أنّ التعبير بـ «القربة إلى اللّه» شائعٌ ورائجٌ بين جميع المسلمين، سواء كانوا من أهل الحضر أو المدر. إنّ التقرّب إلى اللّه ليس أمرًا فيزيائيًّا وجسمانيًّا، بل هو أمرٌ روحانيّ وقلبيّ. فالروح هي التي ينبغي أن تتقرّب إلى اللّه، وهي من سنخ العلم والمعرفة والوعي، ومن أهم خصائصها الذاتيّة الإدراك والفهم والمعرفة.

في إشارة إلى تعريف الجسم، إنّه ذاك الشيء الذي له طولٌ وعرضٌ وعمق. أمّا تعريف الرّوح، فإنّها موجودٌ له إدراك. الفصل المميّز للروح هو الإدراك، لهذا إنّ حقيقتها متوائمة معه. إنّ حركة الرّوح وتكاملها إنّما تحصل في ظلّ العلم والوعي والتوجّه؛ وسقوطها ينشأ من ضعف الشعور والوعي والعلم والتوجّه. بناءً عليه، إنّ مثل هذا الموجود إذا أراد التحرّك نحو اللّه والتقرّب منه، عليه أن يضاعف من توجّهاته إلى اللّه، بل ينبغي له أن يجعل ذلك بصورةٍ دائمة. إنّ توجّهات الرّوح إلى اللّه، هي في الحقيقة خطواتٌ تخطوها الرّوح للوصول إلى اللّه؛ فكلّما قويت هذه التوجّهات، وأصبح الإنسان في دعائه ومناجاته، بل في سلوكه الظاهريّ، متوجّهًا أكثر فأكثر إلى اللّه، وأصبح رضا اللّه والقرب منه محطّ نظره، سوف يقترب إلى اللّه أكثر. في المقابل، كلّما أصبحت توجّهات الرّوح إلى اللّه أقلّ وأضعف، فإنّه يبتعد عن اللّه أكثر؛ وكلّما اقتربت الروح من أعداء اللّه والشيطان، واتّبعت خطوات الشّيطان، فإنّ المسافة التي تفصلها عن اللّه ستكون أكبر.



حصيلة الكلام هي: تتحقّق حركة الإنسان التكامليّة بواسطة القلب؛ وحركة القلب تكون بتبع توجّهاته. من هنا، إنّ حركة الإنسان الحقيقيّة رهن التوّجه والذّكر؛ وحقيقة الذكر هي أيضًا التوجّه إلى اللّه والتنبّه لمحضره، وليس مجرّد اللفظ والكلام. على هذا الأساس، إنّ حقيقة سير الإنسان تابعة لتوجّهاته. إنّ هذا الكلام هو أبعد بكثير من تلك المسائل التي ذُكرت حول فوائد الذّكر (كأن يُقال إنّ الذكر باعثٌ على طمأنينة الروح أو إنّه يبعد الإنسان عن المعصية أو إنّه يمنحه الثواب والأجر، أو يخلّصه من جهنّم)؛ ذلك لأنّ الذكر بذاته وما عُدّد له من فوائد وسائل، أمّا الهدف والمطلوب هو شيءٌ أعلى وأبعد من ذلك. إنّ الهدف هو التقرّب إلى اللّه، أو الوصول إلى مقام القرب، والذّكر هو ذاك الطريق الذي يوصل الإنسان إليه؛ إنّ الفوائد المعدودة للذّكر هي هكذا أيضًا، وليس لها الأصالة. فالأصالة فقط هي في ذاك القرب الإلهيّ. من خلال هذا التحليل ندرك أنّ التكامل الحقيقيّ للإنسان لا يمكن أن يتحقّق من دون ذكر اللّه.

يقول اللّه تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[1].

ثمّ يقول في الآية التالية وهو يذكر علّة الأمر: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾.

يظهر من هاتين الآيتين، أنّ القرب من اللّه لا يحصل إلّا بواسطة ذكره، وبه تزول الحجب الحائلة بين العبد والربّ؛ لو لم يتحقّق الذّكر، فإنّ جميع الكائنات ستكون في قربها وبعدها عن اللّه على حدٍّ سواء، ولن يكون هناك أي اختلافٍ فيما بينها، حيث سيكون أحدها قريبًا والآخر بعيدًا.

ضرورة التوجّه إلى كميّة الذكر وكيفيّته

أمّا فيما يتعلّق بمراتب الذّكر، ينبغي ملاحظة كميّته ومقداره أيضًا، وكذلك ينبغي الاهتمام بكيفيّته. من هنا، تمّ التركيز في الروايات وفي **القرآن الكريم**، وفي توصيات

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠٥.



أولياء الدين على كميّة الذكر، حتّى نجد توصيات بألّا نكتفي في صلاتنا بالأذكار الواجبة، وأن نسعى للإكثار من الأذكار المستحبّة، وكذلك التعقيبات، وتسبيحات فاطمة الزهراء عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ. لا شكّ بأنّه لو لم يكن تكرار ذكر اللّه مؤثّرًا في روح الإنسان، وموجبًا لتعاليه وتكامله ووصوله إلى المراحل العالية من التوجّه إلى اللّه، لما تمّت التوصية به، والتّأكيد عليه بهذا الشكل.

من جملة الآيات الناظرة إلى كميّة الذّكر، والتي أوصى اللّه تعالى فيها بالإكثار من الذكر الآية التالية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1]، وفي آيةٍ أخرى يقول تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2]. كذلك ورد في بعض الروايات أنّ على الإنسان المداومة على ذكر اللّه، ولا ينبغي لأي أمر أن يشغله عن هذا الذّكر؛ نُقل عن الإمام الباقر عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أنّ النبيّ موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ خاطب ربّه قائلًا: يا ربّي تحصل لي حالات أخجل معها من مقام عزّك وجلالك، أن أذكرك فيها؛ فأجابه اللّه تعالى قائلًا: «يا موسى إنّ ذكري حسنٌ على كلّ حال»[3].

في بعض الأحيان، يكون الإنسان في وضعٍ لا يريد أن يراه الآخرون، أو يشاهدوه، أو يتحدّثوا معه، فكيف باللّه في مثل هذه الحالات؟ حيث يكون الوضع باعثًا على الخجل والحياء، فيعمل الإنسان على اجتناب الحديث، والتكلّم مع الآخرين، والاختفاء عن أنظارهم، لكي لا يشاهدوه في مثل هذه الحالة. من هنا، فإنّ موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الذي لم يكن يريد أن يغفل لحظةً واحدةً عن ذكر اللّه، أو أن يتوقّف لسانه المبارك عن الذّكر، توجّه إلى اللّه قائلًا: إنّني في وضعٍ أخجل من عزّتك وعظمتك أن أذكرك، فأجابه اللّه تعالى بأنّ ذكره أمرٌ جميلٌ في كلّ الأحوال والأوضاع. انطلاقًا من هذا الأمر، يوجد في شريعة الإسلام أدعية خاصّة لكل عمل يخطر في البال، حتّى حين الدخول إلى موضع الخلاء وقضاء الحاجة.

ورد عن الإمام الباقر عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في باب التأكيد على كميّة الذكر وأهميّته ما

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٤١.

(٢) سورة **الجمعة**، الآية ١٠.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء١٣، الصفحة ٣٤٣.



يلي: «كان أبي كثير الذكر، لقد كنت أمشي معه وإنّه ليذكر اللّه، وآكل معه الطعام وإنّه ليذكر اللّه، ولو كان يحدّث القوم ما يشغله ذلك عن ذكر اللّه، وكنت أرى لسانه لاصقًا بحنكه يقول: لا إله إلا اللّه»[1]. كذلك تمّ التّأكيد على كيفيّة الذكر كما على كميّته، بل لعلّه أكثر؛ لأنّ القيمة الواقعيّة لكلّ عمل تكمن في كيفيّته ونوعيّته؛ فالعمل الذي يكون صغيرًا بالظاهر وذا جودة عالية، أفضل من العمل الذي يكون كبيرًا بالظاهر وجودته أقلّ. إنّ العمل القليل المتلازم مع التقوى أفضل بكثير من العمل الفاقد للتقوى؛ وركعتان مع توجّه القلب أفضل من مئة ركعة خالية من التوجّه؛ وقراءة عدّة آيات بتوجّه وتدبّر أفضل من ختم **القرآن** دون توجّهٍ وتدبّر. يقول اللّه تعالى في مجال إضفاء الكيفيّة على الذكر والعبادة ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[2].

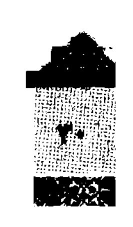
كان أعراب الجاهليّة يتوقّفون عدّة أيّامٍ في منى بعد أداء مناسك الحج، ويتفاخرون بآبائهم وأجدادهم من خلال نظم القصائد والأشعار، ويتبجّحون بأنسابهم أمام بعضهم البعض؛ في مقابل هذا العمل القبيح الناشئ من التعصّب العائليّ والقبليّ، أمر اللّه تعالى المسلمين أن ينشغلوا بذكره بعد الفراغ من الحج، وقال لهم: كما كنتم تذكرون آباءكم فاذكروا اللّه، بل اجعلوا ذكركم للّه أعمق وأشدّ. ذلك لأنّ نعمة الحياة التي منحكم اللّه تعالى إيّاها، وما هو أعلى من ذلك، نعمة هدايتكم إلى الصّراط المستقيم، هي أعلى وأرقى من حقوق آبائكم عليكم.

ترتبط الآية المذكورة سابقًا بكيفيّة الذكر، حيث استُفيد من كلمة «أشدّ» للتعبير عنها؛ فهذه المفردة تبيّن شدّة العمل مقابل ضعفه؛ بناءً عليه، هي ناظرةٌ إلى كيفيّة العمل، في مقابل استعمال لفظ «الكثير»، في مقابل القليل، الذي يحكي عن كمّيّة العمل ومقداره. أمّا التوصية بإضفاء الكيفيّة على العمل، فهي من جهة أن يتوجّه الحاج بعد أداء مناسكه إلى تلك الموقعيّة الخاصّة والحسّاسة التي كان فيها ويتذكّرها؛ وألّا يخسر تلك الفرصة الذهبيّة لإدراك حضور اللّه، وتزايد المعنويّات في موسم الحج؛ وألّا يُبتلى بالغفلة، كما كان يحصل لأعراب الجاهليّة، حيث كانوا يعدّدون مفاخر آبائهم بعد القيام بمناسك الحج، فيغفلون عن اللّه.

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦١.

(٢) سورة **البقرة**، الاية ٢٠٠.



إنّ التوجّه إلى كيفيّة الذكر يرجع إلى أنّ التوجّهات القلبيّة للإنسان ليست سواء؛ فأحيانًا يكون التوجّه سطحيًا، وأحيانًا يكون عميقًا، وأحيانًا يكون من العمق والقوّة بحيث أنّ الإنسان أثناء توجّهه إلى الشخص، يغفل تمامًا عن كل ما يحيط به من أمور، ويبقى ذاهلًا عنها؛ فما أكثر العشّاق الذين أعطوا القلب للمعشوق، وذابوا في جماله ذوبانًا كاملًا، بحيث لم يعودوا يلتفتون إلى ما يجري من حولهم، ولا إلى ما يقوله الآخرون بشأنهم؛ وتصل شدّة التوجّه كما نُقل، أنّهم يُخرجون السهم من قدم أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ أثناء الصلاة، حتّى لا يشعر بالكثير من الألم، لأنّه كان يغرق أثناء الصلاة بالتوجّه إلى اللّه تعالى، فلا يعود لديه أي توجّه إلى نفسه وألمه.

يجب على الإنسان أن يسعى ليزيد من كيفيّة ذكره، ويمنح توجّهه القلبيّ إلى اللّه عمقًا إضافيًّا، في الوقت نفسه، لا ينبغي أن يغفل عن كميّة الذّكر؛ وعليه أن يعلم أنّه لا حدّ لذكر اللّه؛ حتّى لو وُفّق للوصول إلى أعلى مستوًى ممكن بلحاظ الكم، حيث يقضي كلّ أوقاته في الليل والنّهار بذكر اللّه، سيكون أمامه مراحل لا متناهية بلحاظ الكيف. قد تطرأ بعض الظّروف، فلا يكون الذكر اللفظيّ فيها مطلوبًا؛ مثلًا: قد يعاني ضعاف الإيمان من شائبة الرّياء، ويُبتلوا به لو ذكروا اللّه كثيرًا أمام الآخرين، في هذه الحالة من الأنسب لهم أن يكتفوا بالتوجّه القلبيّ، ويقتنعوا به، لكي يصونوا أنفسهم من آفة الرياء، الذي يُعدّ من الشرك.

ارتباط ضبط النفس بالتوجّه إلى اللّه

إنّ درجة التوجّه القلبيّ إلى اللّه ترتبط بمستوى ضبط الإنسان لقلبه وخواطره الباطنيّة. فحتّى يعرف الإنسان رتبة توجّهه القلبيّ إلى اللّه، عليه أن ينظر إلى قلبه، ليعلم إلى أيّ حدٍّ يسيطر عليه، ويمسك بزمامه؛ ويمكن من أجل هذا الأمر التأمّل بالقضيّة التالية: ما هي أكثر الأشياء التي تلفت نظر الإنسان، وتوجّهه أثناء الصّلاة؟ فالبعض أثناء الصلاة التي هي مظهر التوجّه إلى اللّه وذكره ينشغلون بالقضايا الهامشيّة، وقلّما يتوجّهون إلى اللّه، كأنّهم يجدون في الصلاة فرصةً إضافيّةً ليتذكّروا ما نسوا، فيغوصون بالتفكير في قضاياهم اليوميّة، هؤلاء قد غفلوا عن اللّه والصلاة إلى الدرجة التي يتذكّرون أنّهم يصلّون حين يؤدّون التسليم في الصلاة؛ هذه الغفلة عن ذكر اللّه ناشئٌ من تسلّط الشيطان على نفس الإنسان. فلو وقع قلب الإنسان في شِبَاك الشيطان سوف يوجّهه حيث يريد؛ وتكون النتيجة أن يتوجّه الإنسان إلى



كلّ شيء ما عدا اللّه؛ ولو كان من الممكن رسم كيفيّة الخواطر القلبيّة والميول والتوجّهات الباطنيّة أثناء الصّلاة، لالتفت الإنسان إلى أنّه من بين هذه الرسومات الكثيرة، هناك القليل لعلّه يكون خاصًّا باللّه. في الواقع، يتوجّه في صلاته وعبادته إلى كلّ شيء، وإلى كلّ أحد سوى اللّه، الذي هو معبوده، ويسمح لأيّ أحدٍ بالدخول إلى قلبه سوى صاحب القلب الحقيقيّ، وهذه فضيحة كبرى للإنسان؛ وللخلاص من هذه الفضيحة، عليه أن يسعى ليمنع قلبه من التشتّت أثناء الذكر والصلاة، فيصل بالتدريج إلى قدرة التسلّط على النفس والسيطرة على القلب. في هذه الحالة، يمكنه أن يركّز توجّهه على اللّه، ويضفي عليه العمق المطلوب.

إنّ الذين ينشغلون بأعمالٍ قيّمة ومهمّة كتحصيل العلم، إنّهم من فرط حبّهم لكسب العلم وتعلّقهم به، يفكّرون بالمطالب العلميّة في كلّ الأحوال، فتلازمهم أثناء نومهم؛ لا ينبغي أن يؤدّي حبّهم الشديد للعلم وانشغالهم به إلى غفلتهم عن التوجّه إلى سائر أبعاد وجودهم، والتوجّه إلى اللّه وذكره. يجب على العالِم، إلى جانب تحصيل العلم، الانشغال بتهذيب نفسه، وعمارة باطنه، وزيادة توجّهاته المعنويّة إلى اللّه. في مثل هذه الحالة، يمكن القول: إنّ تحصيل العلم هو للّه، وناشئٌ من الإخلاص، وسيترتّب عليه نتائج قيّمة، وسيؤدّي خدمةً للإسلام، ويمنح البركة لوجود الإنسان؛ أمّا في غير هذه الحالة، يُخشى أن يصبح الشخص عالمًا بلا عمل؛ من الطبيعيّ، إذا نمت هذه الشجرة الخبيثة في قلبه، وترسّخت، فإنّ وجوده سوف يكون هباءً منثورًا، ولن يحوز قلبه على لياقة التوجّه إلى اللّه، فكيف بالتوجّه العميق إليه سبحانه وتعالى؟

دور الاحتياجات الماديّة والمعنويّة في ذكر الله

إنّ السبب الأساس لضرورة ذكر اللّه هو الاحتياج الفطريّ في الإنسان نفسه. في البدء، يرى الإنسان حياته أعلى من هذا العالم الماديّ، وهو يبحث خلف هذه الحقائق النسبيّة والاعتباريّة عن الحقيقة المطلقة، التي هي ذاك الوجود والجمال المطلق من أجل أن يربط القلب به. في هذا المجال، إنّ اللّه هو الموجود الأوحد المنزّه عن كلّ عيبٍ ونقص، والذي يستحقّ المدح والثناء والعبادة؛ من هنا، إنّ كلّ النّاس يطلبونه من خلال هذا الدّافع الذي ينبع من باطنهم. حتّى أولئك الذين بحسب الظّاهر تعلّقوا بغير اللّه، أخطأوا في تحديد المصداق، غير أنّهم هم أيضًا



باحثون عن حقيقته. إنّ منبع هذا الشعّور بالاحتياج هو حبّ الإنسان للقضاء على نقائصه، وتعبئة كل فراغات وجوده. في ظلّ اللّه فقط، يمكن أن يرى الإنسان وجوده نورانيًّا، وينسى تلك الفراغات في وجوده، إنّ ذكر اللّه سيكون أفضل طريقٍ لتحقيق ذلك الارتباط مع ذلك المنبع الفيّاض المطلق، والبحر اللامتناهي للّطف والرحمة.

بناءً عليه، إنّ الدافع الإنسانيّ الذي يوجّه الإنسان نحو ذكر اللّه والارتباط به، هو تلك الاحتياجات الماديّة والمعنويّة والأخرويّة المختلفة؛ وبكلمةٍ واحدة، إنّه ضعفه ونقصه الوجوديّ. على هذا الأساس، هناك أنواع ومراتب عديدة للذّكر؛ ولأنّ النّاس يتفاوتون فيما بينهم من ناحية معرفتهم باللّه وأسمائه وصفاته، وكذلك من ناحية احتياجاتهم ودوافعهم لذكر اللّه، فإنّ أذكارهم أيضًا تتفاوت من ناحية المفهوم والدّرجة؛ على سبيل المثال، قد يكون هناك شخصٌ يعاني على مستوى تأمين غذائه، فيوجّهه جوعه واحتياجه إلى الغذاء، نحو صفة الرازقيّة الإلهيّة، فيدعو ربّه بالاسم الرزّاق؛ مثل هذا الشخص حتّى لو قال في تلك اللحظة «يا اللّه»، فإنّه في الواقع ينظر إلى صفة الرازقيّة في اللّه؛ لأنّه قد تصوّر الرازقيّة الإلهيّة في البداية، وتلك الصّفة هي التي أصبحت الموجّه له نحو الربّ؛ هكذا بالنسبة لسائر احتياجات البشر، فكلّ واحدٍ منها يشكّل دافعًا للتوجّه إلى اسمٍ خاصّ من الأسماء الإلهيّة.

إذًا، مع أخذ الدّوافع الماديّة والمعنويّة ومستوى توجّه الإنسان إلى اللّه بعين الاعتبار، ستتشكّل أنواعٌ ودرجاتٌ مختلفة من الذّكر؛ إنّ أدنى مراتب الذكر هي الموارد التي تشكّل الدّوافع والاحتياجات الدنيويّة فيها أرضيّة ذكر اللّه. في البداية، يتوجّه معظم النّاس إلى اللّه عن طريق الاحتياجات الماديّة؛ وحين يُبتلَون مثلًا بالمرض والصّعاب، فإنّهم بالفطرة يتوجّهون إلى اللّه، ومن خلال التوسّل والتضرّع والمناجاة، يسألون اللّه أن يحلّ مشكلتهم. إن كان قد انبعث هذا الذّكر والعبادة والتوجّه من ذلك الدّافع الماديّ، وهم يختلفون اختلافًا جوهريًّا عن عبادة أولياء اللّه وذكرهم؛ لكن لا ينبغي غضّ الطرف عنهم، لأنّ مثل هذه الدوافع هي التي توجد تلك الرابطة بين الإنسان وبين اللّه، وتؤدّي ألّا يغفل الإنسان عن ربّه وعن التوجّه إليه. فما ينبغي الالتفات إليه، هو أنّ الإنسان بهذه الدّوافع الماديّة والدنيويّة، يخطو الخطوات الأولى على الطريق، ويصل إلى أولى مراتب ذكر اللّه وأدناها.

أمّا أعلى مراتب الذكر وأكثرها تأثيرًا، هي التي ترتبط بالموارد التي تكون الدوافع المعنويّة والاحتياجات الأخرويّة فيها هي الباعث على التوجّه إلى اللّه.



حين يرى الإنسان أنّ أمامه حياةً لا متناهية، وأنّ نواقص عالم المادّة كالمرض والفقر والصّعاب التي تتسبّب له بالألم لا تساوي شيئًا، ولا قيمة لها، مقارنةً مع مصاعب وعذابات تلك الحياة الآخرة، فإنّه سوف يدرك أنّ احتياجه إلى اللّه ولطفه وعنايته في ذلك العالم الأخرويّ، هو أبعد بكثير وأعلى من احتياجاته في هذا العالم. على هذا الأساس، إنّ الذي يتوجّه إلى اللّه تحت تأثير الدوافع المعنويّة والحاجات الأخرويّة، فإنّ توجّهه هذا سيكون أكثر رسوخًا وعمقًا؛ لهذا السبب تمّ التركيز في الأدعية والمناجاة الواردة عن الأئمّة الأطهار عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى جانب ذكر النّعم الأخرويّة والتوجّه إليها، على عذابات ومصاعب القيامة.

إنّ الاحتياجات الماديّة (من قبيل الحاجة إلى الطّعام والشراب واللباس، والحاجة إلى الأنس بالآخرين) هي أمورٌ غريزيّة وفطريّة، لهذا يتأثّر بها النوع الإنسانيّ تأثّرًا كبيرًا. كذلك يوجد احتياجات في الآخرة شبيهة لهذه الاحتياجات لكن مع اختلافات أساسيّة وماهويّة، بالنسبة لشبيهاتها الدنيويّة. لهذا، فإنّ اللّه تعالى، ولأجل ترغيب النّاس العاديّين بالجنّة والعالم الأخرويّ، يشير في العديد من الموارد إلى تلك الطّائفة من النّعم الأخرويّة، التي لها نفس اسم النّعم الدنيويّة. وهناك نماذج دالّة في الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[1]، ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]، ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ * يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾[3].

لا شكّ أنّ من أعلى لذائذ الدنيا أن يخلو العاشق بمعشوقه، ويجالسه، ويحادثه، ومثل هذه اللذة تتحقّق في الآخرة لعباد اللّه الصالحين. لهذا يقول اللّه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ * بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[4].

كما قلنا، إنّ مرتبة ذكر الذين يذكرون اللّه انطلاقًا من خوفهم من العذابات ورغبتهم بالنعم الأخرويّة، أعلى وأرقى من مرتبة ذكر أولئك الذين يندفعون إليه

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٢٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٥.

(٣) سورة **المطففين**، الآيات ٢٢ ٢٤.

(٤) سورة **الصافات**، الآيات ٤٣ ٤٦.



انطلاقًا من حاجاتهم الدنيويّة؛ إلّا أنّ أعلى مراتب الذّكر وأكثرها خلوصًا، والتي يعجز عقل الإنسان عن إدراكها وتصوّرها، الذكر الذي لا ينبع من الاحتياجات الماديّة والأخرويّة وحبّ النفس، بل انطلاقًا من الإيمان الخالص، والاعتقاد الرّاسخ باللّه، ومحبّته الأتّم، والأنس به سبحانه وتعالى.

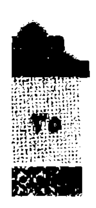
إنّ الإيمان الصحيح والثابت، والاعتقاد الرّاسخ باللّه، يستلزم الذكر الخالص والدّائم لذات اللّه المقدّسة. لو أنّ شخصًا عرف اللّه حقًّا، وآمن به، فلن يجد أحدًا غير اللّه يستحقّ الذكر؛ ولن يتشكّل في نفسه أيّ دافع لذكره سوى الشوق والأنس به. من البديهيّ، حين يتجلّى اللّه في قلب أحد، فإنّ ذلك القلب لن يكون محلًّا لتجلّيات غير اللّه؛ ومثل هؤلاء إنّما يذكرون اللّه انطلاقًا من محبّتهم الشديدة له، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[1]. قد يتذكّر الإنسان صديقه في بعض الأحيان، بسبب المنافع الشخصيّة، لكن في أحيانٍ أخرى، إنّما يتذكر محبوبه انطلاقًا من علاقة المودّة والمحبّة، وهذا الأمر يكون باعثًا على تذكّره في الليل والنّهار، حيث تكون دقّات قلبه ووجهته مولّيةً نحو ذلك المحبوب لا غير. إنّ الذي يؤدّي إلى توجّه عباد اللّه المخلَصين إلى محبوبهم، ويجعلهم مشغوفين بلقائه، هو ذاك الحب، لا طلب المنافع الدنيويّة والأخرويّة؛ ومثل هؤلاء إذا ذُكر اسم محبوبهم، فإنّهم يعيشون وجدًا لا يعرفون معه الرأس من القدم.

نُقلت رواية عن إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وكما يُعلم فإنّه قد حصل على هذا اللقب «خليل اللّه» بسبب شدّة محبّته للّه تعالى؛ وذُكر أنّ الملائكة أرادت أن تعرف درجة محبّة إبراهيم لربّه، وبينما كان يرعى غنمه في البادية ذات يوم، صاح جبرائيل بين السماء والأرض قائلًا: سبّوحٌ قدّوس؛ وبسماع هذا النّداء هاجت أشجان إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقال: من الذي ينادي باسم محبوبي؟ لو ذكرت اسمه مرّةً أخرى لوهبتك نصف غنمي؛ فصاح جبرائيل مرّةً أخرى، فقال: سبّوحٌ قدّوس؛ فازداد وجد إبراهيم الخليل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وقال: إذا ذكرت اسم محبوبي مرّةً أخرى، لمنحتك كلّ غنمي.

أجل، هناك أشخاصٌ يذوبون بعشق محبوبهم بحيث لا تجد على سويداء

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٥.



قلوبهم إلّا صورة المعشوق، وهم مستعدّون للتخلّي عن كلّ ما يملكون، بل عن وجودهم في طريق محبّته وعشقه؛ فبالنسبة لهؤلاء إنّ أعلى لذّة تكمن في ذكر اللّه، ولو شُغلوا دومًا بذكر اللّه لما شعروا بأي تعبٍ أو ألمٍ، بل إنّ ذكر اللّه هو الذي يمنحهم النشاط والقدرة والتحرّك، ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾[١].

أقسام الذكر

تقسيم الذكر إلى الذكر الصريح والضمنيّ وبيان مصاديق الذكر الضمنيّ

من التقسيمات التي يمكن تعدادها بشأن الذكر تقسيمه إلى الذكر الصّريح والذّكر الضمنيّ. في بعض الأحيان، يكون قصد الإنسان وغرضه أن يتوجّه توجّهًا محضًا إلى اللّه، ولا يكون له أي غرض آخر؛ في هذه الموارد، يتوجّه نحو ذات الحقّ الأقدس من خلال التلفّظ بأذكارٍ من قبيل «يا اللّه»، «يا غفّار»، «يا رحمن»، وأمثالها، أو حتّى من دون لفظ بل عن طريق التوجّه القلبيّ. ما نقصده بالذّكر الصّريح هو هذا النّوع من الذّكر. لكن في أحيان أخرى، يكون الغرض الأساسيّ والأوّليّ هو: الدّعاء أو تلاوة **القرآن**، ومن الطبيعيّ أنّه من خلال قراءة **القرآن** والدعاء يحصل ذكر اللّه؛ فمثل هذا الذكر يُسمّى بالذّكر الضمنيّ.

إذًا، الدّعاء يُعدّ من موارد الذكر الضمنيّ، فحين ينشغل الإنسان بالدّعاء، لا يكون بصدد التلفّظ بذكر اللّه فحسب، بل يكون في الوقت نفسه هادفًا بشكلٍ أساسيّ لإظهار احتياجه بين يدي اللّه، وطلب تلك الحاجة من القادر الغنيّ؛ ومن الطبيعي أن يكون ذاكرًا للّه، وأن يتوجّه إليه لإظهار الاحتياج وطلب الحاجة. إنّ قيمة الدّعاء الكبرى تكمن في هذا الأمر، حيث يكون مشتملًا على الذكر، وكذلك على إظهار العبوديّة؛ ويمكن أن يكون تفسير وتحليل ما قيل بأنّ «الدُّعاءُ مُخُّ الْعِبادَة»[٢] هو هذا الأمر؛ لأنّ العبادة هي إظهار العبوديّة بين يدي اللّه، والإقرار بالفقر والعجز في مقابل المالك الحقيقيّ والغنيّ بالذات، وروح الدّعاء هذا الأمر.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٩١.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ٣٠٠.



من مصاديق الذكر الضمنيّ للّه، ذكر أولياء اللّه. يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا المجال: «إنَّ ذِكْرَنا مِنْ ذِكْرِ اللّهِ»[1]. حين يتوجّه الإنسان إلى حضرات المعصومين السادات، يكون متوجّهًا إلى ساحة الربوبيّة أيضًا، ذلك لأنّ توجّهه إليهم هو في الواقع لأنّهم عباد اللّه المقرّبون، ومحبّته لهم هي شعاع من محبّة اللّه؛ كذلك الأمر، فإنّه يحترمهم ويعظّمهم من جهة احترامه وتقديره لساحة الربوبيّة؛ فذكر أولياء اللّه، والتوسّل بهم هو نوعٌ من ذكر اللّه، ومن خلال التوسّل بهم يرسّخ الإنسان ارتباطه باللّه وبحكمه، وذلك لأنّ هذا التوسّل يشتمل على ذكر اللّه والتوجّه إليه أيضًا.

بالالتفات إلى أنّ الدّعاء وذكر أولياء اللّه والتوسّل بهم يُعدّ من مصاديق الذكر الضمنيّ، يتّضح أنّ أكثر الأدعية قيمةً، هي تلك الأدعية التي تشتمل على التوسّل بأولياء اللّه ووسائط الفيض والرحمة الإلهيَين، وقد علّم المعصومون أصحابهم ومحبيّهم أن يكونوا أصحاب دراية إذا أرادوا كسب الفضائل والثواب الأخرويّ، وأن يكونوا أكياسًا، وينظروا ما هو العمل الذي يكون أكثر نتيجةً وثمرةً من بين الأعمال المختلفة، ويقوموا به؛ لهذا، يجب على المؤمن أن يسعى دومًا لاختيار الطريق القصير والمختصر الذي يوصله إلى الهدف بصورةٍ أسرع؛ من خلال الالتفات إلى هذه الوصيّة القيّمة، فعلى متّبع أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أن يسعى لاختيار الدّعاء والكلام الذي يجري على لسانه، المشتمل على الذّكر اللفظي والمباشر للّه، وكذلك على الذكر الضمنيّ والتلويحيّ، والتوسّل بأولياء اللّه والدعاء لهم.

إلى جانب الذكر اللفظيّ واللسانيّ، ينبغي أن يسعى الإنسان ليكون قلبه متوجّهًا إلى اللّه، وكنتيجة لهذه الحالة، فإنّ احتمال استجابة الدّعاء سيكون كبيرًا جدًّا. جاء في الروايات الإسلاميّة أنّ الدعاء للإخوان المؤمنين ولأولياء اللّه، يزيد من احتمال استجابة دعائه. يروي عليّ بن إبراهيم، أنّه رأى عبد اللّه بن جندب في موقف عرفات، ولم يرَ أحسن من وقوفه، وقد كان يرفع يديه إلى السّماء، وتجري الدّموع على خدّيه لتصل إلى الأرض، وحين أفاض الناس من عرفات، قلت له: إنّني لم أشاهد أفضل من وقوفك، فقال لي: أقسم باللّه إنّني ما كنت أدعو لغير إخواني المؤمنين، لأنّني قد سمعت موسى بن جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «إنَّ مَنْ دَعا لأخِيهِ

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٧٢، الصفحة ٤٦٨.



بِظَهْرِ الْغَيْبِ نُودِي مِنَ الْعَرْشِ وَلَكَ مِائَةُ [مئة] أَلْفِ ضِعْفٍ فَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَ مَائَةَ [مئة] أَلْفِ مَضْمُونَة لِوَاحِدَة لاَ أَدْرِي تُسْتَجابُ أَمْ لاَ»[1].

حين يكون الدّعاء للآخرين مهمًّا إلى هذا الحدّ، من الطبيعيّ أن يكون منتهى النباهة والعقل أن يدعو الإنسان لغيره، خصوصًا إذا كان الدّعاء لأولياء الله، والصلاة على محمّد وآل محمّد الذين مقامهم أعلى من الجميع. بالإضافة إلى ذلك، إنّ التوجّه إلى النبيّ وأهل بيته والسلام والدّعاء لهم، هو أعلى وسامٍ يفتخر به الموالي. إنّ الله ببركة وجود أولئك الحضرات، أنعم على الإنسان ورحمه، وأنزل بركاته على مخلوقاته؛ وبسبب وجود أولئك العظماء، انهمرت عطيّاته وفيوضاته على مخلوقاته وعلى الناس. إذا أراد الله أن ينزل رحمةً، فإنّه ينزلها أوّلًا على القلب المقدّس لوليّ العصر عجّل الله تعالى فرجه الشّريف، ومن ثمّ تجري تلك الرّحمة إلى الآخرين؛ فعناية الله بالدّرجة الأولى تكون للوجود المقدّس لإمام الزمان، ولا يليق الآخرون بأن يكونوا مورد توجّه الله إلى جانب حضرة صاحب الزّمان، بل إنّ التوجّه إليهم يكون بطول وامتداد التوجّه إلى حضرته. في الواقع، إنّ العناية بالآخرين هي رشحةٌ من عناية الله بحضرة بقيّة الله الأعظم، وتوجّهه إليه.

حين يكون جميع الخلائق يقتاتون على فتات موائد أولئك الحضرات، وينالون الوجود والبقاء بفيض وجودهم، فأيّ لطفٍ وافتخارٍ هو أعلى من دعاء الإنسان لهؤلاء العظام، وهو دعاءٌ مستجابٌ بلا شك؛ حين يكون ثواب الدّعاء للآخرين أعلى بمئة ألف مرّة من الدّعاء للذّات، فإنّ قيمة الدعاء لأولئك الحضرات لا يمكن أن تُقاس بالأعداد والأرقام؛ حين الدعاء لهم، فإنّ الينابيع الفوّارة للرحمة الإلهيّة سوف تتنزّل على جميع الخلائق، لينال منها كلّ إنسان حسب وعائه. إنّ هذه الرحمة تنشأ من تلك الرحمة المطلقة، التي نزلت في البداية على النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ وأهل بيته عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ. بناءً عليه، إنّ أعلى دعاء وأكثر ذكر بركةً في هذا العالم، هو ذكر الصّلوات.

النقطة الأخرى، حين يقدّم الإنسان هديّةً لصديق، فإنّه حتّى لو كان معدمًا، سوف يسعى بقدر استطاعته لردّ الجميل، وتقديم هدية بالمقابل. إنّ رد الجميل

---

(١) مولى محمّد صالح المازندراني، **شرح أصول الكافي** (بيروت: دار إحياء التراث العربيّ، الطبعة ١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م)، الجزء ١٠، الصفحة ٣٠٠.



تجاه لطف وعناية الآخرين، يُعدّ كمالًا يتناسب مع الفطرة الإنسانيّة التي يتمتّع بها النّوع البشريّ. على هذا الأساس، حين يُظهر الإنسان لهم الإحسان والمحبّة، أو يُقدّم لهم هديّةً، فإنّهم سيسعون لرد الجميل. لو أطلق الإنسان العنان لتصوّره، فإنّ الناس الفقراء المساكين الغارقين في بحر التقصير، إذا دعوا لأهل بيت العصمة والطهارة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وصلّوا عليهم وسلّموا، ماذا ستكون ردّة فعل هؤلاء العظماء؟ فهل ستكون سوى توجّههم ودعائهم المضاعف لهم؟ والذي هو أعظم وأعلى وأكثر تأثيرًا من دعاء الناس لهم؟ بالمجمل وبناءً على أنّ أدعيتهم مستجابة، فهل هناك عمل في هذا العالم أكثر قيمة من الصلوات على النبيّ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ؟

لقد كانت عنايتهم وألطافهم تجاه الناس لا تُقاس، إلا أنّ مقدرًا من محبّة الناس وودّهم لهم، في ظلّ هذه العناية، لن يكون خاليًا من التأثير. والشاهد على هذا المطلب هو الرواية التي ذُكر فيها أنّ رجلًا قال للإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ: «جُعِلْتُ فِداكَ أَشْتَهِي أَنْ أَعْلَمَ كَيْفَ أَنَا عِنْدَكَ قالَ: أُنْظُرْ كَيْفَ أَنَا عِنْدَكَ»[1]. إنّ الحقيقة التي أشار إليها الإمام الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، تشبه العلاقة المتبادلة التي ذُكرت كأحد الأصول في بعض الآيات القرآنيّة، ومنها قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[2]، أو هذه الآية المباركة: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[3].

من المؤكّد أنّ عناية الله بالإنسان ليست معلولةً لتوجّهاته، فليس الأمر والعياذ بالله، أنّه يكون غافلًا، وحين يذكره الإنسان فإنّه ينتبه بسبب ذكره له؛ فلا يمكن لشيء أن يكون غائبًا عن ذكر الله، بل المقصود في المقام، الأثر المترتّب على الذّكر، والرحمة الخاصّة التي تتنزّل على العبد من جهة الله تعالى.

أهميّة ذكر الله

إنّ تأثير الذكر في الكمال الإنسانيّ أمرٌ لا يمكن الشكّ فيه إذا نظر الإنسان من زاوية المعارف الإسلاميّة، لهذا لا ينبغي الشكّ أبدًا في ضرورته وأهميّته. وفي روايةٍ يقول

---

(١) الشيخ الصدوق، **عيون أخبار الرضا (ع)**، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي (بيروت: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٠٤هـ /١٩٨٤م)، الجزء ١، الصفحة ٥٤.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٥٢.

(٣) السورة نفسها، الآية ٤٠.



الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «ما مِنْ شَيْءٍ إلَّا وَلَهُ حَدٌّ يَنْتَهي إِلَيْهِ إلّا الذِّكْرَ فَلَيْسَ لَهُ حَدٌّ يَنْتَهي إِلَيْهِ»[١]. وكذلك ورد في روايةٍ منقولةٍ عن رسول اللّه صَلَّى‌اللَّهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ: «ارْتَعُوا فِي رِياضِ الْجَنَّةِ. قالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَما رِياضُ الْجَنَّةِ؟ قالَ: مَجالِسُ الذِّكْرِ، أُغْدُوا وَرُوحُوا وَاذْكُرُوا. وَمَنْ كانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللّهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللّهِ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللّهَ تَعالى يُنْزِلُ الْعَبْدَ حَيْثُ أَنْزَلَ الْعَبْدُ اللّهَ مِنْ نَفْسِهِ. وَاعْلَمُوا أَنّ خَيْرَ أَعْمالِكُمْ عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَزكاها وَأَرْفَعَها فِي دَرَجاتِكُمْ وَخَيْرَ ما طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ذِكْرُ اللّهِ تَعالى فَإِنَّهُ تَعالى أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ فَقالَ: أَنَا جَلِيسُ مَنْ ذَكَرَني»[٢].

لا شكّ بأنّ طبيعة الدنيا منشأٌ للغفلة، والارتباط بالأمور الماديّة، والاشتغال بالقضايا الدنيويّة؛ وهو أمرٌ يؤدّي إلى التوجّه إلى العالم الفاني والإعراض عن العالم الباقي؛ فالشغل والمهنة والصّناعة والأكل والنّوم ومحادثة الآخرين وحتّى المطالعة وتحصيل العلم، كلّها عوامل توجّه الإنسان إلى ذاته وإلى الماديّات، وتكون سببًا للغفلة عن ذكر اللّه، ومثل هذا الأمر يضاعف من ضرورة الذكر وأهميّته؛ وكشاهد على أنّ الدنيا والأمور الماديّة نفسها تكون سببًا بنحوٍ ما ليغفل الإنسان عن ذكر اللّه، يمكن الإتيان بروايةٍ منقولةٍ عن الإمام الصادق، فقد قال عَلَيْهِ‌السَّلَامُ بأنّ النبيّ صَلَّى‌اللَّهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ ومن دون أن يرتكب أي معصية - والعياذ باللّه -: «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله يستغفر اللّه غداة كل يوم سبعين مرة»[٣]، فالاستغفار كان من جهة أنّه حين يشتغل الإنسان بالأسباب الماديّة، فإنّه يهيّئ الأرضيّة للحرمان من تلك الحياة المعنويّة؛ ذلك لأنّ ما يبعث الحياة في قلب الإنسان ويبقيها؛ وبعبارةٍ أخرى، إنّ ما يغذّي الرّوح والقلب، هو ذكر اللّه. ورد في مناجاة اللّه تعالى مع النبيّ موسى عَلَيْهِ‌السَّلَامُ ما يلي: «عن أبي عبد اللّه عَلَيْهِ‌السَّلَامُ قال: أوحى اللّه عز وجل إلى موسى عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: يا موسى، لا تفرح بكثرة المال ولا تَدَع ذكري على كل حال، فإنّ كثرة المال تنسي الذنوب، وإنّ ترك ذكري يقسي القلوب»[٤].

من الشواهد الأخرى على أهميّة ذكر اللّه، هو أنّ ذكر المحبوب منشأٌ للمحبّة،

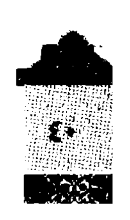
---

(١) **شرح أصول الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١٠، الصفحة ٢٨٢.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦٣.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ٨٢، الصفحة ٢٩٧.

(٤) **شرح أصول الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١٠، الصفحة ٢٧٨.



وأنّ الإنسان كلّما ذكر محبوبه أكثر تزداد محبّته في القلب، وتصبح أكثر رسوخًا وثباتًا؛ فلو أكثر الإنسان من ذكر اللّه، وجعل الاشتغال بذكره مهيمنًا على كلّ حياته، فسوف تتجذّر محبّته في قلبه، وستكون هذه المحبّة وهذا العشق مانعَين من تلك الأعمال التي تؤدّي إلى سخطه وغضبه.

من خلال الالتفات إلى هذه الحالات، فهل يوجد خسارةٌ أكبر من الغفلة عن اللّه والآخرة؟ وهل يمكن أن نتصوّر عاقبةً مؤسفةً أكبر من ذلك؟ يقول أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ حول عاقبة الغفلة: «مَنْ غَفَلَ غَرَّتْهُ الأمانِيُّ وَأَخَذَتْهُ الْحَسْرَةُ إذا انْكَشَفَ الْغِطاءُ وَبدا لَهُ مِنَ اللّهِ ما لَمْ يَكُنْ يَحْتَسِب»[١]. كذلك يروي حسن البصري أنّه شاهد ذات يوم أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في سوق البصرة، وشاهد الناس مستغرقين في البيع والشراء، فبكى الإمام بكاءً شديدًا وقال: «يا عبيد الدنيا وعمال أهلها! إذا كنتم بالنهار تحلفون، وبالليل في فراشكم تنامون، وفي خلال ذلك عن الآخرة تغفلون، فمتى تجهزون الزاد وتفكرون في المعاد؟!!»[٢].

شروط الذكر

لأجل الاستفادة من حقيقة الذكر وإدراك المحضر الإلهيّ، يمكن تعداد مجموعة من الشروط، وسوف تتمّ الإشارة في هذا المجال إلى بعض هذه الشروط من باب النموذج:

١. من شروط الذكر: التوجّه إلى معناه ومحتواه، فالتوجّه الاستقلاليّ والمفرط إلى كيفيّة أداء الكلمات ونحوها، ومخارج الحروف ولحن الصّوت من دون التوجّه إلى معنى الذّكر، سيكون بنفسه من موانع الالتفات القلبيّ إلى حقيقة الذّكر؛ فإذا خلا الذّكر القلبيّ من هذه العوارض اللفظيّة والصوتيّة، يمكن للرّوح أن تتوجّه بصورةٍ أفضل ومباشرةً إلى معاني الذكر.

٢. يجب أن يكون أداء الذكر نابعًا من الشوق والحبّ والإقبال الروحيّ، وليس

---

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٩، الصفحة ٩٠. ورد أيضًا في: علي النمازي، **مستدرك سفينة البحار**، الجزء ٨، الصفحة ٦.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ١٠٠، الصفحة ٣٢.



من العادة والتكرار؛ فكلّما صار الكلام والسلوك معتمدَين على العادة الراسخة، فإنّ صدورهما سيكون شبيهًا بحالة الجبر التي لا يكون للاختيار والحريّة وحتّى أحيانًا لإدراك الروح تأثيرٌ فيها، فهنا يصبح الذّكر ظاهرةً فاقدةً للأثر والخاصيّة.

٣. انطباق العمل والسلوك على معنى الذكر ومقامه: إنّ مقام الذكر وإدراك المحضر الإلهيّ، يستوجب أن يكون الإنسان أثناء الذكر والمناجاة متوجّهًا إلى ذات الحقّ الأقدس فقط؛ فانصراف القلب عن اللّه وعن الذات، وعدم حضور القلب أثناء العبادة والمناجاة يُعدّ قلّة أدبٍ في المحضر الإلهيّ؛ ولا شكّ أنّ مثل هذا الذّكر والدّعاء والعبادة إذا أدّوا لكدورة القلب وتعب الرّوح، فلن يكون لهم ذلك التأثير في تقرّب الإنسان إلى اللّه. فالذي يجري الذكر الشريف «اللّه أكبر» على لسانه، لا ينبغي له أن يقدّم أيّ شيءٍ على اللّه، وذلك لأنّ مفاد هذا الذّكر هو: «أنا أعتبر أنّ اللّه أعلى وأعظم من أيّ شيءٍ ومن أيّ شخص». من هنا، إنّ الذي يتصرّف على عكس ذلك، ويقدّم كلّ شيءٍ في مقام العمل على اللّه، فإنّ قول «اللّه أكبر» لن يكون له نتيجة وأثر في كمال الروح ورقيّها.

٤. إنّ إدراك مقام الربّ وعظمته المطلقة، كذلك رعاية أدب الحضور، يستوجب ألّا يسأل العبد سوى ربّه؛ في هذه الحالة، إنّ الذكر والعبادة سيكونان من زمرة عبادة الأحرار وذكرهم، ويحكيان عن المعرفة والهمّة العالية. إنّ أصحاب الهمم الدانية هم الذين يطلبون الأغيار في محضر المحبوب؛ يطلب من اللّه شيئًا، وإذا قورن بمقام المعشوق، فإنّه لا يساوي ذرّة صغيرة؛ هؤلاء ينظرون إلى هذه الذرّة لأنّهم غرباء وغافلون عن المحبوب والمعشوق الواقعيّ، لكن يغضّون النّظر عن العظمة والجلال اللامتناهيَين للربّ المتعال. من خلال إلقاء نظرة على دعاء السحر الوارد عن الإمام الباقر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يمكن إدرك لمحة من عظمة مقام ذكر الأحرار «اللّهُمَّ إنّي أَسْأَلُكَ مِنْ بِهائِكَ بِأَبهاهُ وَكُلُّ بَهائِكَ بَهِيٌّ اللّهُمَّ إنّى أَسْأَلُكَ بِبَهائِكَ كُلِّه، اللّهمَّ إنّي أَسْأَلُكَ مِنْ جِمالِكَ بِأَجْمَلِهِ وَكُلُّ جِمالِكَ جَميلٌ»[1].

في كلّ هذا الدّعاء يأتي الحديث عن البهاء والجلال والجمال والعظمة والنور والرحمة والعلم والشرف وأمثالها، ولا يوجد أيّ ذكرٍ للقصور والحور والغلمان والبساتين؛ من زاوية النظر هذه، إذا كانت الجنّة جميلة فخالق الجنّة أجمل.

---

(١) **مفاتيح الجنان**، مصدر سابق، دعاء السحر.



٥. يجب أن يكون ذكر اللّه عاملًا لتفعيل الاستعدادات الروحيّة للإنسان، والوصول إلى المقامات الملكوتيّة، وليس عاملًا لمجرّد تسكين الرّوح في مقابل أنواع الجهالات أو المؤذيات، أو وسيلةً للوصول إلى المطالب الماديّة والدنيويّة. فالتصوّر الخاطئ حول الذكر هو التعامل معه كوسيلةً للقضاء على الملل والرتابة التي نعيشها في الحياة، أو لمواجهة الاضطرابات وأنواع الإخفاقات، أو واسطةً للوصول إلى المطالب والرغبات؛ هذا التعامل لا يعطي الذكر دوره الإيجابيّ البنّاء الخالد، ولا يؤدّي إلى تفعيل الاستعدادات الروحيّة الملكوتيّة في الإنسان والتي تُعدّ الهدف الغائيّ للذّكر. على هذا الأساس، إنّ **القرآن** يذمّ هذا النوع من التصوّر ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[١].

فوائد الذكر

١. إذا لم ينبعث الذّكر من العادة والتكرار، ولم يكن مجرّد تحريكٍ للّسان وتكرارٍ للكلمات، بل تمّ التوجّه إلى حقائقه الروحيّة المودعة فيه، فلا شكّ أنّه سيكون موجبًا لظهور حالةٍ روحانيّة؛ حالة إذا أدركها الإنسان، سيتحرّر من أسر الضلالة وقيود الماديّات، وتصبح حياته ذات معنًى، وتتبدّل من الحياة الطبيعيّة المحضة إلى الحياة الإنسانيّة المعقولة.

٢. إنّ ذكر اللّه يؤدّي إلى الطمأنينة والهدوء والنشاط في الروح الإنسانيّة، ويوصلها إلى حالة الاعتدال. من جهة، إنّ الذكر لا يسمح لكلّ الأحزان الناشئة من الاختلالات والنقائص الموجودة في الحياة الطبيعية أن تقضي على الإنسان وتهزمه؛ ومن جهةٍ أخرى، سيكون مانعًا من طغيان الإنسان وسكره أثناء الفرح. يقول اللّه تعالى في **القرآن الكريم** بهذا الصدد: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[٢].

يقول العلّامة المرحوم الطباطبائي في تفسير هذه الآية: «فيه تنبيه للناس أن يتوجّهوا إليه ويريحوا قلوبهم بذكره فإنّه لا همّ للإنسان في حياته إلّا الفوز بالسعادة والنعمة ولا خوف له إلّا من أن تغتاله الشقوة والنقمة واللّه سبحانه هو السبب

(١) سورة **العنكبوت**، الآية ٦٥.

(٢) سورة **الرعد**، الآية ٢٨.



الوحيد الذي بيده زمام الخير وإليه يرجع الأمر كله، وهو القاهر فوق عباده والفعال لما يريد وهو وليّ عباده المؤمنين به اللاجئين إليه فذكره للنفس الأسيرة بيد الحوادث الطالبة لركنٍ شديد يضمن له السعادة، المتحيرة في أمرها وهي لا تعلم أين تريد ولا أنى يراد بها؟ كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه وتستريح معه نفسه، والركون إليه والاعتماد عليه والاتّصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق وهو يجد من نفسه نشاط الصحة والعافية آنا بعد آن. فكل قلب على ما يفيده الجمع المحلى باللام من العموم يطمئن بذكر اللّه ويسكن به ما فيه من القلق والاضطراب. نعم، إنّما ذلك في القلب الذي يستحق أن يُسمّى قلبًا وهو القلب الباقي على بصيرته ورشده، وأمّا المنحرف عن أصله الذي لا يبصر ولا يفقه فهو مصروفٌ عن الذّكر محروم عن الطمأنينة والسكون قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[1]»[2].

٣. إنّ ذكر اللّه يقضي على الوساوس والخيالات والأوهام والعوامل الأخرى، التي تؤدّي إلى حدوث الاختلالات الفكريّة والاضطرابات الروحيّة، ولا يسمح للقوى المنتجة في الذهن والروح أن تذهب هدرًا.

٤. إنّ ذكر اللّه، بالإضافة إلى أنّه يصفّي الباطن الإنسانيّ من الكدورات والوساوس والأوهام، يمكن أن ينظّم الأنشطة الذهنيّة والروحيّة للإنسان، فتنكشف له تلك المجهولات ويصبح تشخيص الحقيقة عنده ميسّرًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[3].

إنّ التعبير بالطائف، يحكي عن أنّ الوساوس الشيطانيّة تشبه ذاك الشيء الذي يطوف حول فكر الإنسان وروحه، لكي ينفذ إلى باطنه، فإذا قام الإنسان في مثل هذه الحالات بذكر اللّه، سيلتفت إلى العواقب المشؤومة للمعصية والتلوّث بالوساوس الشيطانيّة، وسيدرك أنّه في محضر اللّه القدير والعليم، الذي يشرف على أعمق زوايا روحه وقلبه، ويطّلع عليها، وبهذه الوسيلة سيبعد تلك الوساوس عن حرم قلبه، أمّا إذا لم ينهض إلى ذكر اللّه، واستولت عليه الغفلة، وتمكّنت تلك الوساوس من النفوذ إلى قلبه، فإنّه سينتهي إلى الغفلة والاستسلام للوساوس الشيطانيّة.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١١، الصفحتان ٣٥٥ و٣٥٦.

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠١.



٥. إنّ ذكر اللّه مقدّمةٌ للاستغفار والتوبة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١). يُستفاد من هذه الآية أنّ الإنسان ما دام ذاكرًا للّه ويرى نفسه في محضره المقدّس، فلن يرتكب المعصية. إنّ ارتكاب المعصية إنّما يحصل حين ينسى الإنسان ربّه، ويُبتلى بالغفلة؛ إنّ ابتلاء الإنسان بالغفلة هو أمرٌ مؤقّتٌ وعابرٌ عند المؤمنين، لأنّهم سرعان ما يعودون إلى ذكر اللّه، ويكون هذا الذكر باعثًا على التفاتهم إلى خطاياهم فيتوبوا، وذلك لأنّهم يعلمون أنّ اللّه وحده هو الذي يغفر الذّنوب وإليه ملاذ العصاة وأملهم.

من المناسب هنا أن نشير إلى طائفةٍ من الفوائد والفضائل المذكورة في الروايات الشريفة حول الذكر:

- الذكر أصل صلاح القلب «أَصْلُ صَلاَحِ الْقَلْبِ اشْتِغالُهُ بِذِكْرِ اللّهِ»(٢).

- حياة القلوب «فِى الذِكْرِ حَياةُ الْقَلْبِ»(٣).

- الذكر غذاء النفوس ومجالسة المحبوب «ذِكْرُ اللّهِ قُوت النُفُوسِ وَمُجالَسَةُ الْمَحْبُوبِ»(٤).

- الذكر نور القلوب «عَلَيْكَ بِذِكْرِ اللّهِ فَإِنَّهُ نُورُ الْقَلْبِ»(٥).

في روايةٍ أخرى ورد هذا الأمر «ثَمَرَةُ الذِّكْرِ اسْتِنارَةُ الْقُلُوبِ»(٦).

- الذكر شفاء القلوب، فعن رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ أنّه قال: «ذِكْرُ اللّهِ شِفاءُ الْقُلُوب»(٧).

---

(١) **آل عمران**، الآية ١٣٥.

(٢) عبد الواحد بن محمد تميمى آمدى، **غرر الحكم ودرر الكلم**، تحقيق مهدي رجائي (قم: دار الكتاب الإسلاميّ، الطبعة ٢، ١٤١٠ق)، حرف الألف، الرقم ٢٥٧، الصفحة ١٩٨.

(٣) المصدر نفسه، حرف الفاء، الرقم ١، الصفحة ٤٧٦.

(٤) المصدر نفسه، حرف الذال، الرقم ٨، الصفحة ٣٦٩.

(٥) المصدر نفسه، حرف العين، الرقم ٢٣، الصفحة ٤٤٣.

(٦) **غرر الحكم ودرر الكلم**، مصدر سابق، حرف الثاء، الرقم ٤٣، الصفحة ٣٢٨.

(٧) المتّقي الهندي، **كنز العمّال** (لبنان- بيروت: مؤسّسة الرسالة، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م)، الجزء ١، الصفحة ٤١٤. الحديث ١٧٥١.



- الذكر مفتاح الأنس مع الله «الذِّكْرُ مِفْتاحُ الأنْسِ»[1].

في موضعٍ آخر، رُوي عن أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ «إذا رأيت الله سبحانه يؤنسك بذكره فقد أحبّك»[2]، «إذا رأيت الله يؤنسك بخلقه ويوحشك من ذكره فقد أبغضك»[3].

- الذكر يبعد الشيطان «ذِكْرُ اللّهِ مَطْرَدَةُ الشَيْطانِ»[4].

في موضعٍ آخر يقول أمير المؤمنين في هذا المجال: «ذِكْرُ اللّهِ رَأْسُ مالِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَرِبْحُهُ السَّلامَةُ مِنَ الشَّيْطانِ»[5].

- ذكر الله أمان من النفاق: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللّهِ فَقَدْ بَرِىءَ مِنَ النِّفاقِ»[6].

- الذكر باعثٌ على محبة الله، يقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا المجال: «مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللّهِ أَحَبَّهُ»[7].

- الذكر سبب صيانة الإنسان من الخطأ والمعصية، يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ في هذا المجال: «قَالَ اللّهُ سُبْحَانَهُ إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى عَبْدِيَ الِاشْتِغَالَ بِي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي مَسْأَلَتِي وَمُنَاجَاتِي فَإِذَا كَانَ عَبْدِي كَذَلِكَ فَأَرَادَ أَنْ يَسْهُوَ حُلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَسْهُوَ أُولَئِكَ أَوْلِيَائِي حَقًّا»[8].

آثار الإعراض عن ذكر الله

١. نسيان النفس ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[9].

---

(١) **غرر الحكم**، مصدر سابق، حرف الألف، الرقم ٥٩٤، الصفحة ٣٧.

(٢) المصدر نفسه، حرف الألف، الرقم ٦٧، الصفحة ٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه، حرف الألف، الرقم ٧٨، الصفحة ٨١٧.

(٤) المصدر نفسه، حرف الذال، الرقم ٤، الصفحة ٣٦٩.

(٥) المصدر نفسه، حرف الذال، الرقم ١٣، الصفحة ٣٧٠.

(٦) **كنز العمّال**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٤٢٥.

(٧) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦٠.

(٨) المصدر نفسه، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦٢.

(٩) سورة **الحشر**، الآية ١٩.



إنّ مرض نسيان النفس هو أحد الأمراض والآفات الروحيّة المهلكة، فالذي يُبتلى بهذا المرض الروحيّ سينسى حقيقته الإنسانيّة، وينسى أنّه في سلسلة عالم الوجود هو ذرّةٌ حقيرةٌ صغيرةٌ، يحتاج في كلّ لحظةٍ من لحظات حياته إلى الفيض والعطاء الإلهيّين. إنّ مثل هذا الشخص يتصوّر نفسه مستقلًّا وغنيًّا عن غيره، يسقط في فخّ الغرور وتضخيم الذات، ويتصوّر أنّ على الآخرين أن يكونوا في خدمته؛ وأصل هذه المصيبة والبلوى هو نسيان اللّه؛ فبهذا سيبقى محرومًا من الحقيقة الإنسانيّة؛ هذه الحقيقة التي ذُكرت في **القرآن الكريم**، واعتُبرت وعاء إدراك الحقائق الإلهيّة والصّفات الإنسانيّة العالية.

٢ و٣. الحياة الضَنْك والعمى في الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[١].

سينسى الذي يُعرض عن ذكر اللّه هدف الخلق والحياة بعد الموت، ويختصر كلّ شيءٍ في الحياة الدنيا، لهذا فإنّه لن يرتوي أبدًا منها؛ لو كان في مثل هذه الحالة مقتدرًا في الدنيا، يتمتّع بالثراء والإمكانات الماديّة الهائلة، فإنّه سيبقى متعطّشًا لهذه الدّنيا، ويظهر ذلك في وجوده، ولا يمكن أن يستقرّ أو يرتوي. إنّ المشكلة الأساسيّة لهذا النوع من الأفراد الذين يعانون من العطش الروحيّ، أنّهم لا يمكن أن يُشبِعوا هذا العطش الروحيّ من خلال الأمور الماديّة، ولا يمكن إرواء هذا العطش إلّا ببرودة ذكر اللّه تعالى.

كما أنّ الذين يغفلون عن علائم قدرة اللّه وحكمته المطلقة التي لا تُحصى، يغرقون في مستنقع الماديّات، ويغفلون عن ذكر اللّه وعن منبع الحياة الماديّة والمعنويّة، هم في الحقيقة محرومون من البصيرة والرؤية. إنّ مثل هذا الاختيار الذي اتّخذوه في دنياهم، سيكون له تأثيرٌ نهائيّ في أخراهم، وسيؤدّي لأن يُحشروا عميًا، ولن يتمكّنوا حينها من مشاهدة اللطف والكرم الإلهيّين، في ذلك اليوم الذي يحتاجون فيه إلى آثار رحمة اللّه ولطفه بشدّة، لن يشاهدوا أيّ شيءٍ منها، تلك الآثار والرّحمة التي تشمل المؤمنين وتبثّ فيهم الطمأنينة والأمن.

كتتمّة للآية إنّ العبد الذي يُحشر يوم القيامة أعمى، سيقول: يا ربّي لما

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٢٤.



حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا؟ فيجيبه اللّه تعالى قائلًا: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[1].

حين يُعرِض الإنسان عن ذكر اللّه، ويتغافل عن الآيات الإلهيّة، حتّى حين يتلو الآخرون عليه هذه الآيات، لا يلتفت، ويغلق عين قلبه عن مشاهدة الحقائق والمعارف؛ فإنّه سيُحشر يوم القيامة أعمى القلب؛ والذي نسي اللّه وآياته في الدنيا، فإنّ اللّه تعالى سينساه يوم القيامة. هذا لا يعني أنّ اللّه ينسى، وأنّ هذا الشخص قد خرج كليًّا عن ذكر اللّه، بل المقصود أنّه سيكون محرومًا من آثار الرحمة والإنعام الإلهيَّين، وسيسلّط اللّه عليه أنواع السطوة والعذاب.

٤.تسلّط الشيطان ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[2]. إنّ الذي يغفل عن ذكر اللّه يصبح جاهزًا لتقبّل أنواع التسلّط والوساوس الشيطانيّة، لأنّ الإنسان كلّما ابتعد عن ذكر اللّه أصبح أكثر تعلّقًا بالأمور الماديّة ولذائذ الدنيا، واقترب أكثر من ظواهرها وعلائقها. حين تصبح الأهداف الماديّة والتعلّقات الدنيويّة أصلًا لأيّ إنسان، فإنّه لن يُعرِض في ظلّ الوساوس الشيطانيّة عن أيّ عملٍ يمكن أن يوصله إلى أهدافه الخبيثة، وسوف يكون جاهزًا لاستقبال أي فكرة شيطانيّة. بالالتفات إلى هذه الحقيقة يقول الإمام الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: «لاَ يَتَمَكَّنُ الشَّيْطَانُ بِالْوَسْوَسَةِ مِنَ العَبْدِ إِلّا وَقَدْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ»[3].

مقام أهل الذكر في كلام أمير المؤمنين (ع)

قال عند تلاوته ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾[4]:

«إِنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى جَعَلَ الذِّكْرَ جلاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ ومَا بَرِحَ لِلهِ عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ

(١) سورة **طه**، الآية ١٢٦.

(٢) سورة **الزخرف**، الآية ٣٦.

(٣) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٩، الصفحة ١٢٤.

(٤) سورة **النور**، الآيتان ٣٦ و٣٧.



وَفِي أَزمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ فَاسْتَصْبحوا بِنُورِ يَقَظَة فِي الأَبْصَارِ وَالأَسْمَاعِ وَالأَفْئِدَةِ يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللّهِ وَيُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ بِمَنْزِلَةِ الادِلَّةِ فِي الْفَلَواتِ، مَنْ أَخَذَ الْقَصْدَ حَمِدُوا إِلَيْهِ طَرِيقَهُ وَبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، وَمَنْ أَخَذَ يَمِينًا وَشِمَالاً ذَمُّوا إِلَيْهِ الطَّرِيقَ وَحَذَّرُوهُ مِنَ الْهَلَكَةِ وَكَانُوا كَذلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ وَأَدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، ويَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللّهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيأْتَمِرُونَ بِهِ، وينْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذلِكَ فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الاْقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ يَرَى النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لاَ يَسْمَعُونَ. فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ ومَجَالِسِهِمُ الْمَشْهودَةِ وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلى كُلِّ صَغِيرَة وكَبِيرَة أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الاِسْتِقْلاَلِ بِهَا فَنَشَجُوا نَشِيجًا وَتَجَاوَبُوا نَحيبًا، يَعِجُّونَ إِلى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَم وَاعْتِرَاف لَرَأَيْتَ أَعْلاَمَ هُدًى ومَصَابِيحَ دُجًى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلاَئِكَةُ وَتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعَد اطَّلَعَ اللّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ وَحَمِدَ مَقَامَهُمْ يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ. رَهَائِنُ فَاقَة إِلى فَضْلِهِ وَأُسَارى ذِلَّة لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الأَسى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ، لِكُلِّ بَابِ رَغْبَة إِلَى اللّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ وَلاَ يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ. فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ»[1].

---

(١) الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، تحقيق صبحي الصالح (لبنان، بيروت: دار الكتاب اللبناني)، الخطبة ٢٢٢، الجزء ١، الصفحة ٣٤٢.



شرح الخطبة

نورانيّة القلب في ظلّ ذكر الله

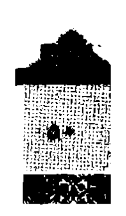
بعد هذه المسائل التي ذُكرت بشأن الذكر، لا بد من شرح ودراسة الخطبة. في بداية الخطبة، يقول أمير المؤمنين بعد تلاوة الآية الشريفة: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، «إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَعَلَ الذِّكْرَ جلاءً لِلْقُلُوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْوَقْرَةِ وَتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ الْعَشْوَةِ وَتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ الْمُعَانَدَةِ».

لا شكّ بأنّ قلب الإنسان يتكدّر على أثر الاستئناس بالأمور الماديّة والتعلّق باللذائذ الدنيويّة، مثلما يحصل للحديد حين يصدأ، فالقلب يصدأ إذا التقى بغير أهل الأنس. يقول أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّ الذي يجلي القلب ويجعله صافيًا ويزيل عنه صدأ ذلك، ويمنحه النورانيّة هو ذكر اللّه. إنّ القلب الإنسانيّ هو حقيقة وجوهر ملكوتيّ، يميل بذاته إلى عالم الملكوت وإلى ذات الحقّ المقدّس، فإذا اشتغل بخلاف ذاتيّته وفطرته يصبح صدئًا، ويصبح سمعه ثقيلًا، ويفقد قدرة الاستماع إلى الحقائق الإسلاميّة الصافية، وبهذه الحالة يمكنه أن يسترجع سمعه من خلال ذكر اللّه، كما أنّ عين القلب التي جُهّزت لمشاهدة الأنوار الإلهيّة إذا ابتعدت عن عالم النور، واستغرقت في ظلمات الجهل والعصيان، ستفقد نورانيّتها وجلاءها؛ والعلاج لمثل هذه الحالة، يكون بالعودة إلى ذكر اللّه، فيتنوّر بصره ويستعيد رؤيته.

أمّا هذه الحقيقة التي ترتبط بوجود بصرٍ وسمعٍ للقلب الإنسانيّ، فقد ذُكرت في الآيات القرآنيّة وفي العديد من الروايات. من المعلوم أنّ سمع القلب وبصره يختلف عن سمع الرأس وبصره، فهو من جنس روح الإنسان وقلبه؛ ولأنّ لقلب الإنسان وروحه جوهرًا ملكوتيًا، فإنّ لسمع القلب وبصره ماهيّة ملكوتيّة أيضًا، من هنا، إنّ آثار عمى القلب وصممه يختلف عن آثار عمى وصمم الأذن الظاهريّة. يقول **القرآن الكريم** بشأن اختلاف عمى القلب وعمى البصر الظاهري: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[1].

---

(١) سورة **الحج**، الآية ٤٦.



مثلما أنّه يمكن للسّمع والبصر الظاهريَين أن يضعفا، بل قد يفقدهما الإنسان فقدانًا كاملًا، كذلك سمع الإنسان وبصره الباطنيَّين يمكن أن يُبتليا بمثل هذه الآفات. قد يُعالج مرض العين والأذن الظاهريَين من خلال الدواء ومراجعة الطّبيب، لكنّ الذي يعاني من المرض الروحيّ، ولا يتقبّل تلك الحقائق التي يذعن لها الأشخاص ذات الفطرة السليمة، فإنّ طريق علاجه يكمن في ذكر اللّه والتوجّه إليه. من خلال البحث والجدال والدليل والبرهان، لا يمكن أن نجعل عين قلب هذا الشخص مبصرةً، فتظهر له الحقائق، ويصبح سمع قلبه مستعدًّا للاستماع إلى تلك المعارف؛ في مثل هذه الحالة، يجب السعي إلى إيجاد أرضيّة التوجّه إلى اللّه والأنس به، فلو حصل مثل هذا الأمر، سيرى ويسمع بوضوح، ويذعن لتلك الحقائق في ظلّ النورانيّة التي حصلت نتيجة الأنس باللّه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[1].

الطمأنينة حصيلة ذكر الله

نجد أنّ **القرآن الكريم** والروايات قد أولَيا قضية الذّكر أهميةً فائقةً، وأعطَياها اهتمامًا خاصًا، حيث إنّ الإنسان إذا اطّلع على كلّ ما تضمّنته يُصاب بالدّهشة. على سبيل المثال: اعتُبر ذكر اللّه تعالى هو الهدف من وراء الصلاة، التّي هي عمود الدّين ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[2]، وفي آية أخرى اعتُبر ذكر اللّه أعلى وأكبر ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾[3].

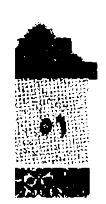
ذكر المفسّرون لقوله ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ تفاسير متعدّدة، فقال البعض: إنّ قسمًا من الصلاة، الذي يعدّ ذكرًا، هو أفضل من سائر الأقسام الأخرى؛ وقال بعضٌ آخر: إنّ الذّكر هو أفضل من الصلاة؛ وأشار آخرين إلى أنّ الصلاة أفضل من سائر الأعمال لكونها ذكرًا. لكن على أيّ حال، إنّ اللّه تعالى جعل الذّكر في هذه الآية أفضل وأكبر على نحوٍ مطلق. إنّ مثل هذا الاهتمام والعناية بالذّكر إنّما يحكي عن ثماره وفوائده، وتمّت الإشارة إلى فوائد الذّكر في بداية هذه الخطبة أيضًا، يعدّد أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعض فوائد الذّكر، وذلك من أجل ترغيب النّاس بذكر اللّه.

---

(١) سورة **النور**، الآية ٤٠.

(٢) سورة **طه**، الآية ١٤.

(٣) سورة **العنكبوت**، الآية ٤٥.



كما تمّت الإشارة سابقًا، إنّ الله يبيّن أنّ من فوائد الذّكر طمأنينة القلوب ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

حسب قواعد النحو في اللغة العربية، فإنّ تقديم الجار والمجرور في الآية يفيد الحصر، وهذا يدلّ على أنّه لا يوجد شيء يبعث الطمأنينة في القلب غير ذكر اللّه. في بعض الأحيان، يؤمن الإنسان إيمانًا تعبديًّا بمفاد هذه الآية، ويذعن بأنّ ذكر اللّه وحده هو الذي يبعث الطمأنينة في القلب، لكن في أحيان أخرى، قد ينظر إلى هذه الآية نظرةً تحليليّةً، لكي يثبت من خلال التأمّل والتفكّر والاستدلال العقليّ مثل هذه الفائدة. لأجل الوصول إلى هذا المقصد، يجب أوّلًا، أن يرى ما هي الأشياء التّي تؤدّي إلى تشويش الخاطر وحصول الاضطراب في حياته، حتّى يعلم كيف يكون ذكر اللّه سببًا لطمأنينة القلب.

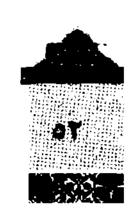
إنّ البحث عن السعادة وطلب الكمال هما مقتضى فطرة الإنسان، ولا شك بأنّ كلّ إنسان هو طالبٌ لسعادته وكماله؛ و**القرآن الكريم** حين يرغّب النّاس بالقيام بالأعمال الصالحة والعبادات في العديد من الآيات، فإنّه يذكر أنّ السعادة والفلاح هي الناتج الطبيعيّ لمثل هذه الأمور؛ فالفلاح والسعادة هما أعلى مطالب الإنسان وأقصاها، وقد أشار إليهما **القرآن الكريم** في العديد من الآيات بتعابير مثل: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وأمثال ذلك. بالالتفات إلى هذه الحقيقة الفطريّة، إنّ اللّه تعالى يقسّم الناس إلى فئتَين: أهل السعادة، وأهل الشقاء، ويعتبر أنّ النهاية الحتميّة، والمصير الذي لا يمكن أن يتبدّل لكلّ طائفةٍ هو السعادة أو الشقاء ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[2].

بناءً عليه، لا شكّ أنّ الإنسان طالبٌ للسعادة بالفطرة؛ فإنّ وجود مثل هذا الدافع والعامل الفطريّ في باطن الإنسان، هو الذي يحثّه ويحرّكه على طريق

---

(١) سورة **الرعد**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **هود**، الآيات ١٠٥-١٠٨.



التكامل، إلّا أنّ الكلام يكون حول ماهيّة الطريق الموصل إلى السعادة: وكيف يمكن للإنسان أن يميّز بين سعادته وشقائه؟ فهو وإن كان طالبًا للسعادة، إلّا أنّه لا يعلم الطريق الصحيح الموصل إليها. يوجد في هذا المجال رؤى كونية مختلفة، ونظرًا لاختلاف الرؤية التي تحملها حول الوجود، فإنّها تقدّم للبشريّة طرقًا مختلفة؛ فوفق الرؤية الكونية الماديّة، التي جعلت الحياة واللذائذ الدنيويّة والماديّة هي الأصل والهدف، إنّ سعادة الإنسان ستكون عبارة عن الاستمتاع ما أمكن باللذائذ الماديّة. أما الرؤية الإلهية، التي تعتبر الحياة الأخروية والقرب الإلهيّ هدفًا أعلى للإنسان، فإنّها لا تعتبر سعادة الإنسان وكماله في الاستمتاع ما أمكن بالدنيا ونعمها، بل ترى أنّ السعادة في القرب الإلهيّ، والوصول إلى رضوان الحقّ تعالى.

إنّ ذكر اللّه من وجهة نظر القرآن يحقّق سعادة الإنسان، فهو باعثٌ على الطمأنينة والاستقرار في القلب. في المقابل، إنّ ترك ذكر اللّه يشكّل الأرضيّة لشقاء الإنسان وانقطاعه عن أصله، ويبعث على خسارة سعادته، ويؤدّي إلى تشويش خاطره واضطرابه وقلقه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[1]. الذي يعرف أهمية ذكر اللّه، يدرك جيّدًا أنّ الإعراض عنه يشكّل خسارةً كبرى، ويؤدّي إلى الحرمان من حياة القلب، التي حقيقةً تكون به؛ فكدورة القلب ونيران الحرمان من الحياة المعنويّة القلبيّة، سيؤدّي إلى الشعور بالألم في كل لحظة، ويرسّخ حالة الحسرة في أعماق القلب. يقول الإمام السجّاد في دعاء أبي حمزة الثمالي: «مَوْلاي بِذِكْرِكَ عَاشَ قَلْبي وَبِمُناجاتِكَ بَرَّدْتُ أَلَمَ الْخَوْفِ عَنّي»[2].

المنشأ الأساس للقلق والاضطراب

كلّ إنسان يبحث عن لذّته وسعادته في الأشياء حسب المعرفة التي يمتلكها حولهما، ويفرّ من كلّ ما يسلبه إيّاهما. لو تفكّر الإنسان جيدًا بجذور ومناشىء الاضطراب والقلق والآلام، سوف يدرك أنّ منشأ كل أنواع القلق سيكون حول خسران السعادة والوقوع في أسر الشقاء. يصدق هذا الأمر على جميع الحوادث التي يقع فيها

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٢٤.

(٢) **مفاتيح الجنان**، مصدر سابق، دعاء أبي حمزة الثمالي.



الإنسان، وتؤدّي إلى انبعاث أسباب الحزن والغم فيه، مع اختلافٍ واحد، وهو أنّ أصحاب الرؤية الماديّة سيجدون أنّ منشأ آلامهم واضطراباتهم هو خسارة السعادة الماديّة والحرمان من اللذائذ الدنيويّة. أمّا الموحّدون والمؤمنون الذين ينظرون إلى ما هو أبعد من الدنيا، ويتفكّرون في الآخرة، سوف يرون أنّ منشأ كلّ أشكال الاضطراب والقلق هو خسارة السعادة الأخرويّة والحرمان من الرضوان الإلهي.

إنّ الاضطراب والقلق من أهمّ بلاءات الحياة البشريّة، ويمكن مشاهدة الأعراض الناشئة عنهما في الحياة الفردية والاجتماعيّة للبشر بوضوح. في المقابل، إنّ الطمأنينة إحدى أهم المسائل التي يبحث عنها الناس دومًا، ويسعون بكل وسيلةٍ ممكنة للوصول إليها. يقول بعض العلماء إنّه حين تنتشر بعض الأمراض وتصبح كالوباء، فإنّ أكثر الذين يموتون بالظاهر بسبب هذا المرض، إنّما يموتون في الحقيقة بسبب الخوف والقلق على أنفسهم، وإنّ عددًا قليلًا منهم يموتون بسبب هذا المرض في الواقع. على أيّ حال، إنّ للطمأنينة والقلق تأثيرًا مهمًّا جدًا على سلامة الإنسان والمجتمع، وعلى مرضه وسعادته وشقائه.

تمتلئ صفحات التاريخ بالأحداث المؤسفة بسبب أنّ الإنسان ولتحصيل الطمأنينة، يكون مستعدًّا للانخداع بأي شيء، وطيّ أي طريق كان، وتعريض الجسد لأنواع الإدمان. في هذا المجال، إنّ **القرآن الكريم** يدلّنا على آمن الطرق وأقربها، وذلك في جملةٍ قصيرة، لكن مليئة بالمعنى، حيث يقول اللّه تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[1].

عوامل القلق والاضطراب

هناك مجموعة من العوامل التي تؤدّي إلى تشويش الخاطر، وحدوث القلق في الإنسان. وأهم هذه العوامل:

١. قد ينشأ الاضطراب والقلق تجاه المستقبل المظلم والغامض، الذي يتراءى أمام تفكير الإنسان. إنّ احتمال زوال النّعم، أو الوقوع في قبضة الأعداء، أو الضعف أو المرض أو العجز أو الاحتياج، إلى ما هنالك، يمكن أن تؤلم الإنسان، لكنّ الإيمان

---

(١) سورة **الرعد**، الآية ٢٨.



باللّه القادر المتعال يقضي على كل هذا القلق، ويمنح الإنسان الطمأنينة.

٢. يمكن أن ينشغل فكر الإنسان بالماضي المظلم في حياته، ويجعله في حالة من القلق الدائم، القلق بشأن الذنوب والتقصير والمزلّات التي وقع فيها، لكنّ التوجّه إلى أنّ اللّه غفّارٌ وتوّابٌ ورحيم يبعث فيه الطمأنينة.

٣. إنّ ضعف الإنسان وعجزه مقابل العوامل الطبيعيّة، وكثرة الأعداء الداخليّين والخارجيّين، يجعله قلقًا مقابل كل الأعداء المقتدرين. لكنّه حين يعود إلى ذكر اللّه، ويعتمد على قدرته ورحمته وهي القدرة التي تفوق كلّ قدرة، والتي لا يُعجزها أحد، ولا يقدر على مواجهتها أحد يطمئن قلبه ويسكن.

٤. في بعض الأحيان، يكون منشأ الاضطرابات التي تعذّب الإنسان، إحساسه بعبثيّة الحياة وعدم هدفيّتها، لكنّ الذي يؤمن باللّه، ويجعل السير التكامليّ في الحياة عنوانًا لهدفه الكبير، ويضع جميع البرامج والأحداث التي تمرّ في حياته على هذا الطريق، فإنّه لن يشعر بأيّ نوعٍ من الفراغ، ولن يكون مضطربًا ومتشائمًا كما يحصل لأولئك الذين يفتقدون إلى الهدف، والذين يعيشون التردّد والشكّ في حياتهم.

٥. إنّ الإنسان أحيانًا يتحمّل الكثير من المتاعب والمصاعب على طريق القيام بخدمةٍ ما، لكن لا يوجد من يقدّر تعبه، أو يشكره، وقد يُواجَه بالتغافل وعدم الاكتراث وعدم الرحمة، وعدم التقدير، ممّا قد يؤذيه كثيرًا، ويجعله يدخل في دوّامة الاضطراب والقلق. لكن حين يشعر بوجود من يرى كلّ سعيه وجهده، ويقدّر ما يقوم به، ويجعل لكّل ذرّةٍ من أعماله ثوابًا عظيمًا، فإنّ قلقه سيزول.

٦. إنّ حبّ الدّنيا والانبهار بزخرف وزبارج الحياة الماديّة أحد أكبر عوامل الاضطراب والقلق لدى البشر. لكن يمكن للإنسان المؤمن أن يضع نهايةً لكلّ هذه الاضطرابات، من خلال إيمانه باللّه، وتأثّره بالتعاليم الإلهيّة والوحيانيّة، وزهده ونزاهته وعدم وقوعه في أسر تلك الزخارف الماديّة للدنيا. كان إيمان الإمام عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وتوجّهه العميق إلى اللّه سببًا أساسيًّا لتكون شخصيّته متحرّرةً من كلّ هذه الدّنيا، كما قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَإِنَّ دُنْيَاكُمْ عِنْدِي لأَهْوَنُ مِنْ وَرَقَة فِي فَمِ جَرَادَة تَقْضَمُهَا»[١].

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، من كلام له ٢٢٤، الجزء ١، الصفحة ٣٤٧.



٧. خوف الإنسان ووحشته من الموت. شغلت هذه القضيّة روح الإنسان وفكره على الدوام؛ وحسب الرؤية الكونيّة الماديّة، فإنّ هذا القلق أمرٌ متوقّع، لكن الذي يدرك أنّ الموت، في ظلّ الإيمان بالله، ليس سوى قنطرة يعبرها إلى العالم والحياة الأوسع والأعلى، وأنّه ليس سوى معبرٍ يسلكه من يريد أن يتحرّر من السجن، ويصل إلى ذلك الفضاء الحرّ، فلن يبقى لهذا القلق من معنًى بالنسبة له.

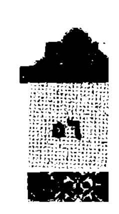
من خلال المرور على العوامل التي ذكرت، يجد الإنسان أنّها ستذوب وتزول مقابل الإيمان بالله. لهذا سيصدّق أنّ ذكر الله أساس طمأنينة القلوب[١].

الاضطراب والقلق بحسب الرؤية الوجوديّة الإلحاديّة

إنّ ذكر الله حسب الرؤية الإلهيّة عبارة عن تعميق الارتباط بالقدرة والحكومة المطلقة للوجود، حيث يصل الإنسان في ظلّ حماها إلى الطمأنينة والسكينة، ويتحرّر من فخّ الاضطراب وإثارة القلق. كما أنّه بذكر الله يُمهّد طريق التكامل. أمّا في الرؤية الماديّة التي تنكر العالم المجرّد وما وراء المادّة، وتحصر كلّ شيءٍ في إطار المادّة وعالم الطبيعة، فإنّ ذكر الله والارتباط به كخالق للوجود هو أمرٌ لا معنى له. على هذا الأساس، وتبعًا لقطع الارتباط بالله، والغفلة عن ذكره، وهو الذي بيده الرحمة والقدرة المطلقَتان، فإنّ الإنسان سيُحرم من الهداية والرّحمة من مبدأ الوجود، ويوكله الله إلى نفسه، وبهذا سيكون باطنه مليئًا بالقلق والاضطراب. أدّت مشاهدة هذا الاضطراب والقلق وشيوعه بين الذين لم يذوقوا طعم الارتباط بالله، ولم يذوقوا ثمرة ذكر الله الطيّبة، وهي الطّمأنينة والسكينة، إلى طرح الوجوديّين الماديّين نظريّة تعتبر أنّ القلق والاضطراب هو الفصل المميّز، والشاخص الأساسيّ والذاتيّ للإنسان. لهذا، لا يمكنه أن ينفصل عن هذا الأمر الذاتيّ أبدًا. بعبارةٍ أخرى، مثلما يُعتبر «الناطق»، على سبيل المثال، فصلًا مميّزًا للإنسان نسبةً لغيره من الحيوانات، فإنّ هذه الجماعة من المنظّرين، قد جعلت الفصل المميّز للإنسان هو القلق والاضطراب. وقع هؤلاء في نظريّتهم تحت تأثير بيئتهم ومجتمعهم تأثيرًا كاملًا. في الحقيقة، اتّخذوا الموقف الانفعاليّ في هذا المجال. في حين أنّه على

---

(١) ناصر مكارم الشيرازي، **تفسير الأمثل**، الجزء ٧، الصفحات ٤٠٧ ٤٠٩.



مرّ التاريخ، كان يوجد الكثير من المؤمنين بالله والأولياء الإلهيّين، الذين لا يوجد في قلوبهم وأرواحهم سوى ذلك الفضاء المترامي من الطمأنينة والسّكينة. لو كان القلق والاضطراب فصلًا مميّزًا للإنسان كما يدّعون، ينبغي القول إنّ أمثال هؤلاء لم يكونوا موجودين، وليس لهم أيّ وجود.

حسب الرؤية القرآنيّة، إنّ الاضطراب والقلق الناشئَين من الخوف، ومن فقدان النّعم واللذائذ الدنيويّة الزائلة، والحرمان منها، هي حالةٌ عارضةٌ على الإنسان، لأنّه طالبٌ للسعادة والكمال بالفطرة. لو أنّ إنسانًا لا يعرف حقيقة سعادته، وطريق الوصول إليها، وكان على إثرِ ذلك محرومًا من الوصول إليها، فمن الطبيعيّ أن يُبتلى بالاضطراب والقلق؛ فقد أُصيب بكلّ هذا الاضطراب بسبب جهله بمبدأ الخير ومصدر السعادة والكمال، ولهذا فإنّه لا يعرف كيف يرتبط به. لو أنّ مثل هذا الشخص أدرك منبع الخيرات وارتبط به، فسوف يزول قلقه واضطرابه. إنّ هذا الإنسان لو عرف مبدأ الوجود والخير، وعرف ربّ العالمين، وعرف من يدبّر العالم والبشر، فإنّه سوف يتوكّل عليه، ويستعين به ببالٍ مرتاح، ويوكل أموره إليه، ويجعله وكيلًا له في كلّ شيء، ويكون مطمئنًّا أنّه لن يخذله ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1].

حين يتوكّل الإنسان على الله، ويستعين به، ويرى أنّ صلاحه في ارتباطه به، فإنّه لن يعيش ذلك القلق أو الاضطراب، فهو يعلم بأنّ الله يريد له الخير، وأنّه تعالى الموجود الوحيد الذي يعلم خيره وصلاحه. لهذا سيكون مسرورًا إذا أفاض الله عليه براحةٍ أو لذّةٍ، لأنّه يعلم أنّ صلاحه فيما جلبه الله له، وإذا ابتُلي بالصعاب والمصائب، فإنّه لن ينزعج، لأنّه يعلم أنّ تلك البلاءات والصعاب لمصلحته، وهكذا يصل شيئًا فشيئًا إلى الرضا بإرادة الله.

بناءً عليه، إنّ الإنسان طالبٌ للسعادة والسكينة بالفطرة، وهو يسعى نحو الذي يمنحه هذه السعادة والطمأنينة، ويلجأ إليه حين يُبتلى بالصعاب والمصائب، وليس هذا الموجود سوى الله المتعال، الذي هو مبدأ الوجود ومدبّر العالم. إنّ الذي عرف هذه القدرة المطلقة للوجود، وجعل نفسه في حصن تدبيره وإدارته، سوف يصل إلى الطمأنينة المطلقة، ويعلم أنّ الله إذا لم يشأ، فإنّ جميع القوى

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٣.



المادّيّة، حتّى لو اتّحدت، فإنّها لن تتمكّن من أن تصيبه بأدنى أذى؛ وأنّ اللّه قد أعدّ له كلّ ما فيه خيره وصلاحه. أمّا الذين لم يصلوا إلى هذه المعرفة الإلهيّة، فمن الممكن أن يلتجئوا إلى أيّ أحد، أو يتحصّنوا بأيّ شيء؛ وأن يستعينوا بأمثالهم، وفي بعض الحالات وبسبب فرط جهالاتهم، قد يلجؤون إلى الحيوانات والجمادات، أي الأصنام والأوثان، وهي موجودات بحسب قول **القرآن الكريم** لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا؛ فكيف بتأمين مصالح الآخرين ودفع الضرر عنهم؟ وهكذا يذمّ اللّه تعالى أمثال هؤلاء حين يقول: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[1].

إنّ الذين يعتمدون في حياتهم على غير اللّه لن يحصلوا على أي نفعٍ، وذلك لأنّ الآخرين أوّلًا: يسعون لتأمين منافعهم هم، وثانيًا: لو أرادوا أن يوصلوا النفع لغيرهم، فإنّ قدرتهم محدودة ومقهورة لقدرةٍ غالبةٍ هي فوق جميع القدرات والقوى، وهي القوّة التي لا تُغلب. لو أراد أيّ إنسانٍ أن ينال راحة البال الدائمة، ويدرك السكينة التي لا تزول، عليه أن يختار ذلك الشيء المحكم، والذي لا يُهزم، ويرتبط بمبدأ القدرة المطلقة، القادر على تخليصه من الشقاء، وإيصاله إلى السعادة، وإنقاذه من المشكلات والمضائق التي تعصف بحياته. في مثل هذه الحالة فقط، يمكنه أن يتخلّص من القلق والاضطراب.

التجلّيات العمليّة والسلوكيّة لذكر الله

ثبت من الناحية العمليّة أنّ الذين يتوكّلون على اللّه، ويحيون ذكره في قلوبهم، يتمتّعون دومًا بالسكينة والطمأنينة التي لا توصف. أمثال هؤلاء في أشدّ أنواع الأزمات التي تجتاح حياتهم، وعند مواجهة أصعب الأحداث والمواقف، لا ينكسرون ولا يتزلزلون. لقد كان الإمام الراحل (قده) النموذج الأبرز لمثل هؤلاء في زماننا، الذي منّ اللّه تعالى بنعمة وجوده الكبرى على الناس، فأصبح قدوةً خالدةً لهم، وسوف يبقى. هذا الإنسان الجليل لم يتراجع، ولم يتزلزل في أشدّ أنواع الأزمات والأحداث التي يمكن أن تعصف بأيّ شخصٍ أو مجتمع، ولم يفقد طمأنينته وسكينته. مرّت أيام وأشهر كثيرة على الإمام (قده) كانت تحوق به الأخطار من كلّ

---

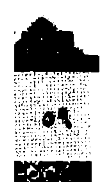
(١) سورة **الرعد**، الآية ١٦.



جانب، ولم يكن لديه من ناصر في الأرض، كان ينتقل من هذا البلد إلى ذاك بعيدًا عن وطنه ودياره، من دون أن يمنحه أحدٌ أي ملاذ. كان هذا الإنسان العظيم منقطعًا عن جميع الإمكانات الظاهرية، ولم يكن يمتلك أي وسيلة يدافع بها عن نفسه في مقابل المخاطر المحتملة؛ ومن أكثر الساعات والدقائق خطورةً في عمر الإمام (قده) كانت تلك التي عاد فيها إلى بلده بالطائرة بعد أربعة عشر سنة من النفي. في تلك الليلة المتأزمة، أحاطت به المخاطر من كلّ صوب، فالجو والطائرة ومسؤولي المطار كانوا جميعًا تحت إمرة العدوّ، وكانت كل لحظة بالنسبة له تشكّل خطرًا حقيقيًّا محتملًا؛ وكان من الممكن أن تتعرض طائرته للإسقاط بواسطة صاروخ، أو أن يُقتل في المطار. بالرغم من كل هذه الظروف، وبالرغم أنّه لم يكن هناك أيُّ ضمانة، فقد كان يستريح في الطائرة بمنتهى الطمأنينة ثمّ ينام، وحين سُئل ما هو شعورك كونك عائدٌ إلى وطنك؟ قال: ليس لديّ شعورٌ خاصّ.

لو أنّ إنسانًا تعرّض لخطرٍ بسيط، فإنّه يفقد هدوءه وطاقته، وربّما لا يقدر على النوم طيلة الليل من شدّة التوتر؛ أمّا ذاك الرجل العظيم، بالرغم من أنّ العالم كلّه كان ضدّه، فإنّه لم يتحرّك له جفن، وكان يرى كل تلك التهديدات فارغة وعديمة الأثر؛ وقبل ذلك حين هجموا على منزله في قم واعتقلوه وجاؤوا به إلى طهران، كان الضبّاط والعملاء الأمنيين الذين يواكبوه في السيارة يرتجفون من الخوف؛ قيل إنّه توجه إليهم قائلًا: طالما أنّكم أنتم الذين تعتقلونني فلماذا تخافون؟ وقال في إحدى المناسبات: واللّه، إنّني لم أخشَ أحدًا أو شيئًا لحدّ الآن. أظهر اللّه تعالى للإنسان هذه النماذج، كي يدرك أنّ ذكر اللّه والتوجّه إليه مفيدًا، إنّه كالإكسير الذي يحوّل النحاس إلى ذهب، وبه تذوب كل أنواع العظمة، وتضمحل كل أشكال القدرة. إنّ للّه تعالى عظمة مطلقة لا نهاية لها، ولا يمكن لأي قدرة أن تقف بوجه عظمته وقدرته اللامتناهية. ذاك الذي يرتبط بمثل هذا المنبع العظيم ويودع القلب عنده، فإنّه لن يضعف مقابل المخاطر ولن ينهزم.

إنّ الإنسان مولودٌ ضعيفٌ جدًّا، ولا يملك الاستقلاليّة من نفسه. فكلّ حركات الإنسان وسكناته مرتبطة بالقدرة الإلهية، كما أنّ حياته وبقاءه مرهونَان بإرادة اللّه ومشيئته. لهذا، يجب عليه أن يشعر بالضّعة والصغار والذّلة والحقارة بين يدي اللّه، كما وصف اللّه تعالى المؤمنين في كتابه العزيز قائلًا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ



يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

إنّ المؤمنين يقفون كالجبل الراسخ في مقابل جميع القِوى العالمية، لأنّهم يستعينون بـالله، ويعتمدون عليه، فلا يمكن أن يخضعوا أو يتزلزلوا، لكن حين يذكرون الله تعالى، ويقفون بين يديّ عظمته المطلقة، فإنّهم يرتجفون، وتقشعر جلودهم، وتتزلزل أبدانهم. والنموذج الكامل لهذا النوع من المؤمنين أشخاصٌ مثل أمير المؤمنين عليّ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فالإمام الذي لم يكن له نظير في البأس والشجاعة، كان حين يقف في محراب العبادة، ترتعد فرائصه من عظمة الله، وكان سائر الأئمة هكذا؛ لا يخشون أيّ قدرة غير إلهية، وحين وقوفهم بين يديّ الله، حتى قبل الصلاة وأثناء الوضوء، كانت تشحب وجوههم، ويُغشى عليهم.

طرح البعض تساؤلًا حول ظهور هاتَين الحالتَين المختلفتَين، اللتَين تبدوان متاضدتَين بالظاهر، كيف أنّ الله من جهةٍ يقول: إنّ ذكر الله موجبٌ للطمأنينة والسكينة القلبية؛ ومن جهة أخرى، يقول: إنّ ذكر الله موجبٌ للخوف بين يديه؟ والجواب جرت الإشارة إليه سابقًا، وهو أنّ موضوع المقولتَين وموارده‍ما متفاوتٌ. في المورد الأوّل، حين يجد الشخص نفسه في مقابل القِوى غير الإلهية، ولأنّه يذكر الله، ويعتمد على قدرته المطلقة، فإنّه لا يخشاها، لأنّه يعلم أنّ لله القدرة الأعلى مقابل القوى الشيطانية، ومن خلال الاتّصال بهذه القدرة الإلهية المطلقة، فإنّه لن ينهزم أمام أي قدرة. أما حين يجد نفسه بين يدي الله، وفي محضر العظمة الإلهية المطلقة فإنّه يرتعد.

إنّ حصول مثل هذه الأحوال المتضادة بصورة متناوبة في عموم المؤمنين، أمرٌ لا يمكن إنكاره؛ أمّا تحقّق مثل هذه الحالات والجمع بينها في الوقت نفسه، لا يحصل سوى لخواص أولياء الله، وأصحاب السلوك الصادق، الذين وصلوا إلى مقام جمع الجمع، وأدركوا وشهدوا جوهر الكمالات ولبّ الفضائل. بالنسبة لأمثال هؤلاء العظام، فإنّ إدراك هذه الحالات المتضادة بصورة جمعية أمرٌ ميسّر، وإن لم يكن أمثالنا قد وصل إليها، وأدرك حقيقتها، رغم التصديق بهذه المقامات، واعتبارها قابلة للتفسير.

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢.



يقول العلامة الطباطبائي (رحمة اللّه عليه) في تفسير ترتّب الحالتَين المذكورتَين على ذكر اللّه: حين يكون الإنسان مشغولًا بأمرٍ ما، ويركّز اهتمامه بصورة كاملة على أمرٍ دنيوي، فلو أنّ آيةً قرآنيّةً تُليت فجأةً، أو أنّ صوت الآذان وصل إلى مسامعه، فإنّه وبسبب الانتقال المفاجئ من حالةٍ إلى حالة، تحصل له حالة من الاضطراب، وما يشبه الخوف؛ أمّا إذا استمرّ توجّهه إلى اللّه وأنِس بذكر اللّه، فإنّ الثبات والسكينة يسيطران على ذهنه وقلبه. وقد أشار **القرآن الكريم** في سورة **الزمر** إلى هذه القضية. قال اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[1].

بناءً على التحليل الذي ذكر، حين يستمع المؤمنون إلى آيات **القرآن**، يتغيّر حالهم وتعتريهم حالة من الخوف والخشية في مقابل القدرة والعظمة الإلهيّين، لكن حين يركّزون توجّههم تدريجيًّا إلى الساحة الإلهية المقدّسة، ويأنسون بذكر اللّه، فإنّ ذلك الخوف يتبدّل إلى طمأنينة وسكون.

الهداية الإلهيّة الخاصّة

«وَمَا بَرِحَ لِلّه عَزَّتْ آلاؤُهُ فِي الْبُرْهَةِ بَعْدَ الْبُرْهَةِ وَفِي أَزمَانِ الْفَتَرَاتِ عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ وَكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ»[2].

يشير أمير المؤمنين عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ في هذا المقطع من خطبته إلى أولئك النبهاء الأذكياء المتديّنين الباحثين عن الحقيقة، الذين جعلهم اللّه متمتّعين بهذه اللياقة والشرف، حيث يخاطبهم ويناجيهم عن طريق عقولهم، وينير قلوبهم بنور هدايته، ويظهر لهم الحقائق.

إنّ جميع الناس باستثناء المجانين، يتمتّعون بالعقل وقدرة الفكر والتفكّر، حتى أولئك الذين يتحرّكون على طريق الخداع والجناية. يستخدم الجميع قدرة الفكر للوصول إلى مقاصدهم، سواء كانوا مصلحين وأتقياء، أو مفسدين وأشقياء،

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٢٣.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، من كلام له ٢٢٢، الجزء ١، الصفحة ٣٤٢.



ويستعملون أسلحة الدمار الشامل، ويقضون على الكثير من البشر الأبرياء؛ والفرق يكون في كيفية الاستفادة من الفكر.

يختار اللّه تعالى على أساس تدبيره وهدايته الحكيمة، وبعد اختبار الناس عبادًا لائقين، وأولياءَ يتمتّعون بالاستعداد التام لقبول الحقّ، فيناجيهم من أعماق قلوبهم وعقولهم، ويعينهم على أخذ القرارات الصحيحة والمرضية، ويزيدهم فهمًا على الدوام، وحسب سعتهم الوجودية، يعينهم على الوصول إلى قمم السعادة والفلاح، ويجعل فكرهم وذهنهم وقدرة تدبيرهم بيده ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾[١].

إنّ جميع الناس يتمتّعون بالهداية الإلهية الأوّلية، لكن عددًا قليلًا من بينهم يستفيدون من هذه الهداية، ويطوون مسير التكامل الإنسانيّ؛ لأجل ذلك، يزيد اللّه عز وجل من هدايتهم. لكنّ البعض يسلبون أنفسهم هذا التوفيق ولياقة الهداية، ويرجّحون العمى والضلالة على الهداية ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[٢].

أنواع الوحي في القرآن

استُعملت مفردة الوحي في القرآن الكريم في أربعة معانٍ:

١. المعنى اللغوي: إنّ الوحي في اللغة عبارة عن الإعلان السريع والخفي الذي يحصل من خلال الإشارة.

٢. معنى الهداية والإدراك الغريزي والفطري المودع في عمق الموجودات: من الموارد التي استعملت فيها كلمة الوحي في **القرآن** بهذا المعنى، ما يمكن الإشارة إليه من خلال هذه الآية الشريفة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾[٣].

---

(١) سورة **محمد**، الآية ١٧.

(٢) سورة **فصلت**، الآية ١٧.

(٣) سورة **النحل**، الآيتان ٦٨ و٦٩.



٣. معنى الوحي الرسالي والتشريعي: المخاطَبون بهذا الوحي هم الأنبياء فقط، الذين يُبلَّغون بالآيات التشريعية الإلهيّة، وليس لغيرهم هذا التوفيق للاستماع إلى هذا الوحي، وإذا كان هناك من مستمع إليه، فإنّه لا يُعدّ من المتلقّين له، كما أشار أمير المؤمنين في خطبته القاصعة إلى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بشأن ما كان يسمعه «إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وَتَرى مَا أَرى إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ وَلكِنَّكَ لوَزِيرٌ وَإِنَّكَ لَعَلى خَيْر»[1].

٤. معنى الإلهام أو الإلقاء في القلب: في هذا النوع، إنّ الشخص دون أن يرى الملقي، أو يكون خاضعًا للتعليم، يتلقّى الموضوع من الخارج؛ ويكون هذا التلقّي أحيانًا من مصدرٍ نوراني وإلهي، وهذا يحصل حين تكون النفس قد وصلت بسبب طهارتها ونورانيتها المعنوية إلى مقامٍ أصبحت مستعدّة لتلقّي الحقائق من جانب الكائنات المعنويّة الأعلى، ومن أولياء اللّه، وحتى من المقام الربوبي. في هذه الحال، إنّ علوّ الروح وسموّها يكونان سببًا لتلقّيها مثل هذه الإلهامات. لكن في أحيان أخرى يمكن لهذا التلقّي والإلهام أن يكون من مصدرٍ شرّيرٍ وشيطانيّ؛ وذلك حين تتسافل النفس من ناحية الدناءة والظلمة والكدورة بحيث ترتبط بالموجودات التي هي من سنخها، فتلقي عليها كلامًا لا أساس له، ووساوسًا مخادعة. إنّ ملاك استعمال الوحي في الموردَين الأخيرَين كونه باطنيًّا وخفيًّا، وكذلك سريعًا كالتلقي والتعلّم. من جملة الإلهامات الرحمانية يمكن الإشارة إلى قضية أمّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والتي ذكرت في **القرآن الكريم** ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

لا شك في أنّ تلك الأفكار الخمسة، وهي: إرضاع الابن، وإلقائه في اليم، وعدم الخوف والقلق على مصيره، والرجوع الحتميّ للابن، ورسالته ونبوّته، كل هذه التي أُلقيت في قلب أمّ موسى، لم تكن من اختلاقات نفسها، بل كان ذلك عاملًا غيبيًّا يطلعها على ما سيجري، لكن بما أنّ هذا التعليم قد حصل بصورة خفيّة وبسرعة، فقد استُعمل بشأنه كلمة الوحي.

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الخطبة ١٩٢، الجزء ١، الصفحة ٣٠١. ورد أيضًا في: **بحار الأنوار**، الجزء ١٤، الصفحة ٤٧٦.

(٢) سورة **القصص**، الآية ٧.



إلهام الله ومناجاته لأوليائه

بالالتفات إلى ما ذُكر بشأن استعمالات الوحي ومعانيه في القرآن، يُستنتج أنّ مناجاة اللّه لأوليائه في ذوات أفكارهم وعقولهم، والتي أشار إليها أمير المؤمنين في هذه الخطبة، هي من مقولة الإلهام. مثلما أُشير سابقًا حين يقوم الأشخاص بتزكية أنفسهم وتطهيرها، يظهر فيهم الاستعداد لتلقّي الإلهامات الغيبيّة، كالتي تحصل للأنبياء الإلهيّين، وتكون هذه الهداية والإلهامات الإلهيّة الغيبيّة قطعيّة، لا يمكن الخدش بها، لكنّ سعتها وشعاعها يكونان متفاوتَين. نظرًا لاختلاف المؤمنين من جهة وعائهم الوجوديّ، وفي تلقّيهم للحقائق المعنوية، فإنّ اللّه والمصادر المعنوية العالية يلقون عليهم بإلهاماتهم بما يتناسب مع سعتهم الوجوديّة. على هذا الأساس، إنّ مراتب الإلهام تتشكل تبعًا لتفاوت المؤمنين، وتفاوت أولياء اللّه، من حيث وصولهم إلى مدارج الكمال والرّقي. إنّ الذين وصلوا إلى أعلى مراتب المخاطَبين بالإلهمات والإشراقات الإلهيّة، هم النبي الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ والأئمة المعصومين عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، ويأتي من بعدهم سائر المخاطَبين بالإلهامات الغيبية، بتبع سعتهم الوجوديّة.

أشار الإمام الصادق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، في روايةٍ له يعدّد فيها أصناف علومهم، إلى كيفية الإلهامات التي تحصل للأئمة المعصومين عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، «إنَّ عِلْمَنا غابِرٌ ومَزْبُورٌ ونَكْتٌ فِي الْقُلُوبِ وَنَقْرٌ في الأسْمَاعِ. فَقالَ أَمَّا الْغابِرُ فما تَقَدَّمَ مِنْ عِلْمِنا، وَأَمَّا الْمَزْبُورُ فَما يأْتينا، وَأَمَّا النَّكْتُ فِي الْقُلُوبِ فَإلْهامٌ، وَأَمَّا النَّقْرُ فِي الأسْماعِ فَأَمْرُ الْمَلَكِ»[1].

حسب ما نُقل في **بصائر الدرجات** في ذيل هذه الرواية، إنّ زرارة بن أعين يسأل الإمام عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بشأن ذاك المورد الذي يخاطب فيه الملك الإمام، «كَيْفَ يَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمَلَكِ وَلَا يَخَافُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الشَّيْطَانِ إِذَا كَانَ لَا يَرَى الشَّخْصَ؟» قَالَ: «إِنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ السَّكِينَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْمَلَكِ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ لَاعْتَرَاهُ

(١) محمد يعقوب الكليني، **الكافي**، تصحيح علي أكبر غفّاري (طهران: دار الكتب الإسلاميّة، الطبعة ٣، ١٣٨٨هـ)، الجزء ١، الصفحة ٢٦٤. ورد أيضًا في **شرح أصول الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٦، الصفحة ٥٠.



فَزَعٌ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَا زُرَارَةُ لَا يَتَعَرَّضُ لِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ»[1].

بعد حديث أمير المؤمنين عَلَيْهِ‌السَّلَامُ عن مناجاة اللّه لعباده الذين اختارهم، وإلهامه لأفكارهم وعقولهم، يشير إلى ثمرة وحصيلة هذه الإلهامات الغيبية والإلهية، فيقول: «فَاسْتَصْبحوا بِنُورِ يَقَظَة فِي الأبْصَارِ وَالأسْمَاعِ وَالأفْئِدَةِ يُذَكِّرُونَ بِأَيَّامِ اللّهِ»[2]، فأولئك الذين اختصّهم اللّه بخلوة الأنس معه، وناجاهم في عقولهم، وصار أمر فكرهم وعقولهم بيده، وبيّن لهم الطريق من خلال إلهاماته، هؤلاء يستصبحون بنور اليقظة في أبصارهم وأسماعهم وقلوبهم، ويضيء مشعل الهداية أمامهم. هؤلاء أدركوا الحقائق كما ينبغي، وسمعوها ووعوها في قلوبهم، ليسوا كأولئك الذين سلكوا طريق الطغيان والعناد والكفر، وحرموا أنفسهم من مشاهدة الحقائق، وحسب ما ورد في **القرآن الكريم** أصبحوا عُميَ القلوب ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[3].

إنّ هؤلاء المهتدين، الذين هجر البخل والحسد وجودهم، هم في سعيٍ دائم لهداية الآخرين، وإيصالهم إلى منبع الهداية والنور الذي أدركوه، يذكّرون الناس دائمًا بأيام اللّه، والعلامات الإلهيّة المحكمة والنورانية. هؤلاء كالأعلام، ينتصبون في الفيافي الخالية من أي علَم، ليبيّنوا الطريق للمسافرين، ويلفتوهم إلى المخاطر، ويوجّهون الناس إلى عظمة اللّه وجلاله، ويوصلون إلى أسماعهم عاقبة الانحراف عن مسير الهداية. إنّ هؤلاء كأولئك الذين يختارون الجادة الوسطى، وفي طيّ الصراط المستقيم للهداية، إنّهم يتلطّفون، ويثنون، ويبشّرون بالخلاص والنجاة والوصول إلى الهدف المطلوب. في الجهة المقابلة، يوبّخون كل شخص يخرج عن صراط الهداية، يتخبّط يمينًا وشمالًا، يضلّ الطريق، ويحذّرونه الهلاك.

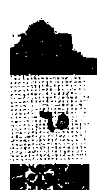
في الفتن، حيث يُبتلى البعض بالشبهات والانحرافات، ويسعون لإيقاع الآخرين فيها، فيجرّون الناس إلى طريق الكفر والنفاق والشقاق، فالذين أدركوا خلوة الأنس مع حضرة الحق، وتشرّفوا بحضور مجلس ذكر اللّه، يسعون ليكونوا مشعل

---

(١) محمد بن الحسن بن فروخ الصفار، **بصائر الدرجات**، تعليق محسن كوچى باغى (طهران: منشورات الأعلمي، ١٣٦٢ ش /١٤٠٤ ق)، الجزء ١، الصفحتان ٣٣٨ و٣٣٩.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، من كلام له ٢٢٢، الجزء ١، الصفحة ٣٤٢.

(٣) سورة **الحج**، الآية ٤٥.



هداية في الظلمات، وأدلّاء للناس على مواجهة مصائد السقوط والانحراف.

موقع أهل الذكر في كلام المعصوم

في تتمّة هذه الخطبة، يتحدّث أمير المؤمنين حول التجلّيات السّلوكية والعمليّة لذكر الله فيقول عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْهُ»[1]. إنّ أغلب الناس يتحركّون في أثر الدنيا والماديات، ويكدحون من أجل الوصول إليها، وتحقيق رغباتهم الدنيوية، فلا همّ ولا غمّ عندهم سوى تأمين لذائذ الدنيا ونعمها؛ ومن بين هؤلاء، هناك ثلّة قليلة من عباد الله الذين أصبحوا من أهل الذكر والأنس بالله، فاختاروا بدل الدنيا والتعلّق بلذّاتها خلوة الأنس مع ربهم. إنّ لذّة هؤلاء تحصل في الحديث مع المحبوب، والارتباط به، وأداء العبادة له، ومناجاته، وبث أسرارهم له. إنّ هؤلاء عاشقون لذكر الله، ومشغوفون به، وفي مجلس الأنس بالحق يغرقون بمشاهدة المحبوب. إنّ مثل هؤلاء المتيّمون العشّاق، ولّوا وجهتهم شطر المحبوب، وأعرضوا عمّا سواه؛ فإذا اشتغلوا في الظاهر بهذه الدنيا والكسب والتجارة، فإنّ ذلك لا يشغلهم عنه، ولا يقلل من توجّههم إليه؛ فرغم أنّهم في الظاهر منشغلون بأمور الدنيا، أمّا قلوبهم فهي في محلٍّ آخر؛ أبدانهم بين الناس، أمّا قلوبهم فمع أحدٍ آخر؛ فإذا تحدّثوا إلى الناس تصوّروا أنّهم متوجّهون إليهم، في حين أنّ توجّههم يكون إلى الله، ويقضون أيّامهم بذكر الله. هم لا يفكّرون بأنفسهم فقط، بل يفكّرون في هداية الآخرين ونجاتهم، يرشدون الغافلين من خلال تذكيرهم وتحذيرهم من ارتكاب المحرمات والعقوبات الإلهية. هم في البداية، يتزيّنون بالعدالة، ثمّ يدعون الآخرين إليها. يبتعدون عن القبائح والمساوئ، ثمّ يحاولون إبعاد الآخرين عنها.

إنّ المصداق البارز لأهل الذكر هو الأمير وأبناؤه المعصومون عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وحسب الرواية التي نُقلت في كتاب **الكافي** الشريف، إنّ المراد من أهل الذكر في **القرآن** هم هؤلاء العظماء، وهي الرواية التي رُويت عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ بشأن الآية الشريفة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[2]. حيث قال: «اَلذِّكْرُ

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٤٢.

(٢) سورة **الزخرف**، الآية ٤٤.



الْقُرْآنُ ونحنُ قَوْمُهُ وَنَحنُ الْمَسْؤُولُونَ»[1]. كذلك طبق الرواية المروية عن الإمام الكاظم عَلَيْهِ‌السَّلَامُ، عن رسول الله صَلَّى‌اللهُ‌عَلَيْهِ‌وَآلِهِ، بشأن هذه الاية الشريفة ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]. قال عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: «اَلذِّكْرُ أنا، والأئمَّةُ أهلُ الذِّكْر»[3].

سبيل زيادة وتقوية الذكر والتوجّه إلى الله

إنّ لذكر الله في الإنسان وشؤون الحياة المختلفة تجلّيات عديدة؛ فذكر الله باللسان يكون بصورة الذكر اللفظي، وفي البدن بصورة الركوع والسجود والخضوع، وفي القلب بصورة الخشوع والتوجّه إلى الساحة الربوبية. إنّ ذكر الله والخوف من عاقبة الأعمال، يؤدي إلى جريان الدموع من العين، وارتعاد الفرائص، وتغيّر اللون، كما أنّ الذكر يؤدي إلى الأداء الصحيح للوظائف الشرعية مع قصد التقرّب، وما لم يكن هناك ذكر وتوجّه إلى الله، فلا يمكن لأي عبادة أن تؤدّى بصورة صحيحة ومطلوبة. إنّ ذكر الله كالروح التي تنفق في جميع أعمال الخير والعبادة، فتمنحها القيمة والحياة.

إنّ التوجّه إلى هذه التجليات، وإلى ما ذُكر في الآيات والروايات بشأن الذكر، يؤدّي إلى تقوية الدافع عند الإنسان من أجل تحصيل هذا الإكسير القيّم، لكنّ الحديث هنا، هو حول سبيل الوصول إلى المراتب العالية للذكر، ومعرفة الموانع التي يمكن أن تقف على طريق التوجّه والذكر، وذلك بقصد تجنّبها.

إنّ السبيل لترسيخ ذكر الله في القلب، وامتداده إلى جميع شؤون الحياة الإنسانية، يكمن في السعي لتعميقه واستدامته واستمراريته؛ فمن أجل الوصول إلى الدرجات العالية للذكر، ينبغي السعي لزيادة مقدار وكمية ذكر الله، كذلك ينبغي السعي لتعميق التوجّه إلى الله، والرفع من نوعيّته؛ فمن الممكن أن تكون حركة الإنسان في هذا المسير هادئة ومتأنيّة، ولا يتمكّن من أن يخطو خطوات كبيرة في هذا المجال، لكن إذا داوم على هذه الخطوات والتحرّكات الهادئة، فإنّه سوف يصل يومًا ما إلى القمّة، ويدرك المراحل العالية لذكر الله؛ فالمرحلة التي يكون الوصول إليها في البدء صعبًا، ويبدو أنّها غير ممكنة، تصبح ممكنة في النهاية.

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٢١١.

(٢) سورة **النحل**، الآية ٤٣.

(٣) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٢١٠.



إنّ الأمور المعنوية تشبه الأمور المادية، من حيث أنّها ذات مراحل؛ فمن دون عبور المراحل الدانية لا يُمكن الوصول إلى المراحل العالية. لو أنّ شابًا يحبّ رياضة رفع الأثقال، فإنّه لا يتمكّن من رفع المئة كيلوغرام من الأيام الأولى، لكنّه من خلال ممارسة الرياضة والتمرينات الكثيرة، وزيادة قدرته وطاقته، سيتمكّن يومًا ما من القيام بهذا العمل، والوصول إلى تلك القدرة. هكذا عند السير في طريق العلم والمعرفة، إنّ طالب العلم الذي شرع حديثًا في تحصيل العلم، لن يتمكّن من حل القضايا العلمية والرياضية المعقّدة. كذلك الحال في الأمور المعنوية، حيث يُمكن للأشخاص أن يطووا المدارج الأعلى للكمال والمعنويات، من خلال الحركات التدريجيّة والمستمرّة. لا يمكن للشخص أن يصل إلى تلك المقاصد العالية بحركة دفعية، أو بما يُشبه الطفرة. رغم أنّه يوجد من بين عباد اللّه المصطفين من يتمّتع باستعدادات وجودية غير محدودة، أو قابليات خارقة، حيث تكون حركتهم التكاملية سريعة جدًّا. إنّ بعض المعصومين يحوزون على العلوم الكثيرة وهم في بطون أمّهاتهم، ويُسبّحون اللّه وهم في تلك المرحلة؛ لكن هذه الثلة القليلة وهم من الأنبياء والأولياء المعصومين مستثنون هنا، وحسابهم يختلف عن الآخرين. إنّ الأشخاص العاديين لا تمتد عين طمعهم إلى مثل هذه الحركة السريعة، كما أنّ مثل هذه الحركة غير متاحة بالنسبة لهم. على هؤلاء أن يضعوا أنفسهم على مسير ذكر اللّه، والتوجّه إليه بالاستمداد من التوفيق الإلهي، وأن يتحرّكوا شيئًا فشيئًا، حتى يصلوا إلى المقصد النهائي.

عرض **القرآن** المجيد طرقًا مختلفة لتقوية الذكر، والارتقاء بالتوجّه إلى اللّه تعالى، وأحد هذه الطرق هو الصلاة. في هذا المجال، يكلّم اللّه تعالى نبيّه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ويقول له: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]. في هذه الآية، جُعل الذكر والتوجّه العميق إلى اللّه، الذي يتحقق بحضور القلب في الصلاة، هدفًا لهذه العبادة. هنا، يأمر اللّه تعالى نبيّه موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنّه إذا أردت الوصول إلى هذا الهدف المتعالي، فعليك أن تقيم الصلاة. بناءً عليه، ومن أجل الوصول إلى المرتبة العالية للذكر، والتوجّه الباطني المستديم إلى اللّه، لا بد من البدء بالصلاة والأذكار اللفظية. من المؤكّد أنّه في البداية لا يقدر الإنسان الوصول إلى الحضور الكامل

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٤.



للقلب، ولن يتيسّر له تحقيق المراتب العالية للروحانية والنورانية بصورة مباشرة، لكنّه لو توجّه إلى معاني الأذكار بالحدّ المقدور له، وقلّل من التوجّه إلى غير اللّه، وذكر اللّه بتركيزٍ أكبر، فإنّ روحه وقلبه سيحصلان شيئًا فشيئًا على المزيد من الاستعداد لتحقيق التوجّهات الأكثر خلوصًا.

أفضل الفرص للعبادة والخلوة مع اللّه

يشكو بعض الطلاب في بعض الأحيان، أولئك الذين يشتغلون بالعلم والمعرفة، من تشتّت الحواس وعدم التركيز أثناء المطالعة، ويطلبون من أساتذتهم أو أصدقائهم أن يدلّوهم على طريقة لتحقيق تركيز الحواس. من البديهي، إذا كان الإنسان أثناء المطالعة مركّزًا حواسّه، فإنّه سيفهم المسائل بصورة أفضل، وسوف يستفيد من فرصة المطالعة أكثر. من الطرق التي تُعرض على هؤلاء الأشخاص، أن يسعوا ليزيدوا من دافعهم وشوقهم للمطالعة، وأن يختاروا الجوّ الهادئ، البعيد عن الضجيج، والخالي من أيّ تشويش أو أيّ عامل يُشغل ذهن الإنسان به، لأنّ كل هذه الأمور تؤثّر في ذلك. يُنصح هؤلاء الأفراد من خلال التمرين، وبالتدريج، بالسعي لتركيز أفكارهم وتوجّهاتهم أثناء المطالعة على المسائل المطروحة في الكتاب واجتناب الأمور الأخرى.

كذلك بشأن الصلاة والذكر والتوجّه إلى اللّه، يُطرح السؤال التالي: ماذا ينبغي أن نفعل حتى يتحقّق حضور القلب أثناء الصلاة، والتلفّظ بذكر اللّه، وحتى يكون التوجّه منحصرًا باللّه؟ الجواب هو: في الدرجة الأولى، يجب القيام بالتمرين والممارسة، فإلى جانب سائر العوامل، يُعدّ التمرين أكثر العوامل أهميةً من أجل الوصول إلى أي هدف. إلى جانب التمرين، يجب السعي لتخصيص أفضل الأوقات للعبادة والصلاة وذكر اللّه، ويجب الاختيار لذكر اللّه والعبادة، تلك الأوقات التي يتمتع فيها الإنسان بالنشاط الكافي، والتي يكون فيها أكثر استعدادًا للعبادة؛ ويكون بدنه في حال اعتدال. لن يكون الوقت مناسبًا للعبادة بعد تناول الطعام وملء المعدة، أو في حال الجوع وضعف البدن، أو في حال التعب وعدم الشعور بالنشاط والراحة الكافيَين. على امتداد النهار، وحين يكون الإنسان مشغولًا بنشاطاته اليومية وأداء وظائفه، لن يكون لديه استعدادًا كافيًا للعبادة؛ لكن أثناء الاستراحة بعد الظهر، وكذلك بعد إنهاء الأنشطة اليوميّة وحين الغروب،



وبالخصوص عند اقتراب آذان الصبح وبين الطلوعين، يكون الوقت مناسبًا للعبادة والذكر. يقول **القرآن الكريم** في الإشارة إلى أفضل أوقات تسبيح الله وعبادته، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾[١]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾[٢].

إنّ اختيار محلّ الخلوة له تأثيرٌ في تقوية حضور القلب أثناء العبادة والذكر. هذا وإن كان ذكر الله ممدوحًا دائمًا، لكنّ الروايات توصي بقضية الخلوة مع الله، والارتباط به تعالى بعيدًا عن أعين الناظرين. وفي حديثٍ قدسي يقول الله تعالى لنبيّه عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: «يا عيسى أَلِنْ لي قَلْبَكَ وَأَكْثِرْ ذِكْري فِي الْخَلَواتِ»[٣]. ويقول الإمام الصادق عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أيضًا: «شِيعَتُنا الَّذِينَ إِذا خَلَوْا ذَكَرُوا اللّهَ كَثِيرًا»[٤].

إنّ التأكيد على الوحدة والخلوة أثناء العبادة، يعود إلى أنّ التركيز المطلوب لأجل التوجّه إلى الله لا يكون ميسّرًا في محضر الآخرين، وفي الأجواء المليئة بالضجيج، والتشويش لا يسمح للإنسان أن يكون منتبهًا فيؤدّي العبادة وذكر الله بحضور القلب. علاوة على ذلك، من الممكن أن لا تسلم دوافع الإنسان، فتتلوّث بالرّياء والتظاهر. فبعد إنجاز الأعمال اليومية، والخروج من أجواء الضجيج، يمكن للإنسان أن يخلو بنفسه ويفكر، ويتوجّه إلى الله، وينهض لأداء العبادة بحضور قلبٍ أقوى. إنّ الله تعالى ليس بعيدًا عنّا، وهو أقرب إلينا من أيّ شخصٍ أو أيّ شيء، وبتعبير القرآن هو أقرب إلينا من حبل الوريد، ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[٥]. لكن حتى نأنس بالله، نحتاج لأن نرتبط به من أعماق قلوبنا. في البداية، لن يظهر الأنس بالله فينا، وسيبدو الإنسان أجنبيًّا عنه، ويكون الارتباط به، والتوجّه العميق إليه صعبًا؛ ولكن مع تكرار التوجّه وذكر الله والمداومة على الارتباط به، سيشعر الإنسان شيئًا فشيئًا بأنّه يعرفه، وسيأنس به، وسيكتشف مدى لذّة الأنس به؛ وقد يصل الأنس إلى الحدّ الذي لا يعود الإنسان معه مستعدًّا لقطع أنسه

---

(١) سورة **النور**، الآية ٣٦.

(٢) سورة **الأحزاب**، الآيات ٤١- ٤٢.

(٣) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء٢، الصفحة ٥٠٢.

(٤) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٤٩٩.

(٥) سورة **ق**، الآية ١٦.



بمحبوبه ومخاطبته له، سوى في الموارد التي أمره الله تعالى السعي بها للقيام بوظائفه ومسؤولياته وشؤون حياته اليومية.

إنّ القرآن في العادة يبيّن الأصول والكليّات، ولا يدخل في بيان جزئيات وتفاصيل البرامج، ويوكل بيانها إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ[1]، لكن حين يصل الأمر إلى قضية العبادة والمناجاة مع اللّه، فإنّه يشير إلى الجزئيات ويركّز عليها. في إحدى الآيات يقول **القرآن الكريم**: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾[1]. في آية أخرى يقول: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾[2][2].

لا ينبغي الاستخفاف بهذه القضية، أو المرور عليها مرور الكرام، فحين يؤكّد **القرآن** في مثل هذا المورد، على بيان وقت وزمان العبادة ونوعها كالتسبيح والسجدة، فذلك بسبب الدور البنّاء، والأثر العميق والأساسي لها في التكامل المعنوي للإنسان. إنّ تأكيد **القرآن** هو من أجل مراعاة هذه الآداب، فلا تُترك بحجّة أنّها مستحبة، ولا يتمّ التحجّج بعدم تأدية الواجبات بالشكل المطلوب، فكيف تُؤدَّى المستحبّات ويصير الإنسان من أصحاب السجدات الطويلة؟

ضرورة الاهتمام بأداء صلاة الليل والمستحبات وتجّنب اختلاق الأعذار

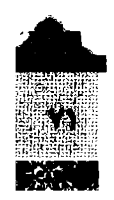
لا شكّ أنّ أجدر الناس في المجتمع الشيعي، وبين هذا العدد الكبير من ملايين المسلمين الإيرانييّن الذين يعيشون في ظلّ النظام الإسلاميّ، برعاية المستحبات وأداء صلاة الليل والقيام بالخلوات والمناجاة الليلية مع اللّه هم العلماء، الذين يشتغلون بالكتاب والسّنة، والذين يستفيضون من مائدة علوم الأئمة الأطهار عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ؛ فلا يُتوقّع من الآخرين الذين ليس لديهم اطلاع على المعارف الإسلامية والآداب الشرعية، أن يقوموا بمثل هذا الأمر. لو أنّ هذه المستحبات والآداب الشرعية قوبلت بعدم الاكتراث والاهتمام من قبل العلماء، فلِمَن تكون

---

(١) ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ سورة **النحل**، الآية ٤٤.

(٢) سورة **الطور**، الآيات ٤٨- ٤٩.

(٣) سورة **الإنسان**، الآيات ٢٥- ٢٦.



هذه الأحكام؟ ومن الذي ينبغي أن يطبقها؟ وماذا سيكون جوابهم يوم القيامة على هذا التقصير والخمول؟

إنّ الأمر الأوّل الواجب على العلماء هو تحصيل العلم، وليس عليهم ترك تحصيل العلم والتفرّغ لأداء المستحبات، بل إنّ الكلام هو حول التقليل من الأوقات التي يصرفونها في أعمالٍ غير ضرورية، والتي في بعض الأحيان لا فائدة منها (كمشاهدة الأفلام والمسلسلات ومطالعة الجرائد)، وتخصيصها لصلاة الليل، وأداء سائر المستحبات؛ فكم يصرف البعض من الوقت في الأمور الفارغة وعديمة الفائدة، لكنّه يشعر بالتعب والتثاقل من أداء السجدات الليليّة، التي أكّد عليها **القرآن الكريم**. بشأن المؤمنين وأوليائه، يقول اللّه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ * وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[1]. كما أنّه يأمر رسوله أن يقضي الليل بالعبادة والمناجاة، ويخصّص القليل منه للاستراحة، لكنّ البعض رجّح الاستراحة والنوم العميق على العبادة والمناجاة الليلية. يقول اللّه تعالى مخاطبًا نبيّه الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[2].

جاء بشأن أحوال النبي الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ أنّه كان يستيقظ من نومه بعد منتصف الليل، ويقوم بالمناجاة والدعاء والتضرّع وأداء قسم من صلاة الليل، ثمّ يستريح مرّةً أخرى لعدّة دقائق، ثمّ يقوم مرّة أخرى من نومه، ويتضرّع ويدعو ويؤدّي قسمًا آخر من صلاة الليل، ويستمر على هذا النحو حتى آذان الصبح، وذلك بعد تلك الاستراحات القصيرة ليقوم ويتعبّد، هذا في حين أنّ هذا النبي الكريم لم يكن ينسى اللّه حتى في منامه. إذا كان هذا هو حال رسول اللّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَآلِهِ، ألا يكون جفاءً حين لا يُخصّص عدّة دقائق من آخر الليل لصلاة الليل؟ لا ينبغي السماح للوساوس الشيطانية، والحجج والأعذار والانشغالات، والاهتمام بجزئيات الأمور، أن تجعل للتقصير مدخلًا في أداء صلاة الليل والتوجّه إلى اللّه.

ينقل أحد أساتذة الأخلاق وهو الحاج آغا حسين فاطمي (رحمه اللّه) أنّ أحد

(١) سورة **الذاريات**، الآيتان ١٧ و١٨.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٧٩.

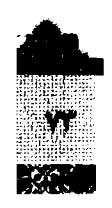


طلاب العلم سأل الشيخ الأنصاري (رحمه اللّه)، هل أنّ قيمة وثواب المطالعة أكثر أم صلاة الليل؟ في ذلك الزمان كان تدخين النرجيلة شائعًا ورائجًا. لهذا سأل المرحوم الشيخ ذاك الطالب قائلًا: هل تدخّن النرجيلة؟ فأجابه: أجل. فقال الشيخ له: استبدل واحدة من تلك النرجيلات بصلاة الليل. بناءً عليه، يجب أن نكون حذرين ومراقبين كي لا يوسوس لنا الشيطان، فنرجّح الاستراحة على أداء صلاة الليل، ونخسر هذا التوفيق الإلهيّ الكبير.

رغم أنّ مسؤولياتنا ووظائفنا والفرائض الواجبة علينا كثيرة، ولا نخصّص الوقت الكافي للقيام بها جميعًا، ألا ينبغي أن نخصص شطرًا من وقتنا لبناء الذات وصلاة الليل؟ بالنسبة لنا ما هو الشيء الأوجب والأكثر ضرورة من بناء النفس والتوجّه إلى اللّه وذكره؟ ألا نصل من خلال كل هذا التأكيد والوصايا القرآنية إلى إدراك أهمية هذه الأمور؟ وهل نحتاج إلى أن يكون هناك شخصٌ خاص يوصينا بصلاة الليل، وبناء الذات والمناجاة مع اللّه، ويُرغّبنا بذلك؟ ألا تكفينا تأكيدات **القرآن** وتوصياته؟ وهل يوجد وصيّة أعلى من وصيّة اللّه و**القرآن** للقيام بالسجدات الطويلة الليلية، والتضرع والمناجاة مع اللّه؟ فلنعمل أولًا بوصايا القرآن، فإن لم نحصل على نتيجة، فلنبحث عن غيره. لا شك بأنّه لا يوجد من مربٍّ ومعلم أعظم من **القرآن**، لكنّنا غافلون عنه، ونبحث عن أولئك الذين هم أقل بكثير من **القرآن**، والذين لا يصح المقارنة بينهم وبينه.

في البداية، سيكون الأمر صعبًا بأن نخصص وقتًا طويلًا لصلاة الليل والمناجاة الليلية، لهذا يجب علينا أن ننهض باهتمامٍ وجدّيّة، ونقوم بحركة مستمرّة وطويلة المدى، لكي نصل إلى تلك المرحلة التي تصبح فيها صلاة الليل والسجدات الطويلة لذيذة بالنسبة لنا، حيث لو خصّصنا لها ساعات وساعات لما شعرنا بأي كللٍ أو ملل، ولما فقدنا نشاطنا وبهجتنا. هذا الأمر يُشبه ما يحصل للإنسان بشأن الأمور الدنيوية، فإنّه لا يصل إلى المقصد دفعةً واحدة، بل يحتاج إلى التمرين والسعي والحركة.

على أي حال، في أي مرحلة نحن فيها، علينا السعي لنعمل بقدر طاقتنا. إذا لم نكن قادرين على تخصيص ساعة واحدة للمناجاة ولنافلة الليل، فلنخصّص عشر دقائق من منتصف الليل لهذا الأمر؛ وإذا لم نوفّق لأداء صلاة الليل في وقتها،



فلنسعَ لقضائها بعد صلاة الصبح؛ ونستطيع أن نقضي النافلة أثناء المشي والتّنقل. لا ينبغي أن نتوقع في البداية أن نصل إلى حالة التوجّه والحضور القلبي التي تكون لأولياء اللّه عند ذكر اللّه، ولا ينبغي لنا أن نترك ما نستطيع القيام به بحجّة أنّه ليس لدينا حالة توجّهٌ وإقبالٌ قلبيّ؛ وذلك لأنّه يفصلنا عن هؤلاء فراسخ كثيرة.

إنّ المسافة التي تفصل بين قول أمير المؤمنين «اللّه أكبر»، وبين الذكر الذي نقوله نحن هي كالمسافة بين السماء والأرض. لو قضينا سنوات في السعي والتمرين والتّحرك، على مدى طويل ومستمر، على طريق التكامل والوصول إلى المقامات العالية للذكر، ولم نتوقف أثناء الطريق ولم نتراجع، يمكن أن نقترب قليلًا من مقام ذكر هذا الإمام؛ والآن إذا توقّفنا أثناء الطريق وتراجعنا، وكان يومنا أسوأ من أمسنا، وعامنا أسوأ من العام الفائت، وابتُلينا بالمزيد من القسوة، ففي مثل هذه الحالة، لن يكون هناك أمل بتكاملنا، ولا يمكننا أن نتحرك على طريق عليٍّ، وأن نكون من شيعته.

مجالس الذّكر

كما لاحظنا، لقد تمّ التأكيد والتوصية في بعض الروايات على القيام بذكر اللّه في الخلوات والوحدة، وأكدّ علماء الأخلاق أيضًا على هذا الأمر، لكن هذه التوصية والتأكيد ليسا مطلقَين ودائمَين. في بعض الموارد، تمّت التوصيّة بإقامة المجالس العامّة للذّكر، والمشاركة في المجلس الذي يُقام لذكر اللّه؛ ففي روايةٍ منقولة عن رسول اللّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أنه قال: «ارْتَعُوا فِي رِياضِ الْجَنَّةِ، قالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ وَما رِياضُ الْجَنَّةِ؟ قالَ: مَجالِسُ الذِّكْرِ، اُغْدُوا وَرُوحُوا وَاذْكُرُوا»[1].

إنّ حديث رسول اللّه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ يبيّن نقطة تربويّة مهمّة، تبيّن ما للمجالس اللائقة من تأثيرٍ مهم على مستوى حركة الإنسان نحو الكمال. إنّ الأشخاص العاديين، غالبًا لا يكون لديهم الرغبة والشوق للقيام ببعض الشعائر والبرامج الدينيّة حين يكونون بمفردهم، أمّا إذا شاهدوا الآخرين إلى جانبهم، فإنّ النشاط والدافع ينبعث فيهم. على سبيل المثال، رغم كل ما لإحياء ليالي القدر وأداء

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦٣.



مراسمها وأعمالها من فضيلة وأهميّة، إننا في الغالب لا نمتلك لوحدنا ذلك النشاط والدافع للبقاء مستيقظين في تلك الليلة والقيام بأعمالها؛ لكن لو ذهبنا في ليلة القدر إلى المسجد، سوف نشعر بالنشاط والدافع ونبقى مع سائر الناس مستيقظين حتى الصباح، ونقوم بعباداتها وبرامجها من دون أن نشعر بأدنى تعب أو كسل. لا تُقام بعض الشعائر الدينيّة، مثل مجالس العزاء، في الأساس بصورةٍ فرديةٍ، وتكون إقامة المجالس والاجتماعات أمرًا ضروريًا لأدائها؛ فإقامة التجمعات لأداء هذه الشعائر، يؤدّي إلى ترغيب الآخرين وتحفيزهم، والدعوة إلى الخير. على هذا الأساس، عرّف النبي الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ المشاركة في مجالس الذّكر، وكل مجلسٍ يُقام لإحياء الدين ومجالس أهل البيت عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ بمثابة الدخول إلى بساتين الجنة ورياضها. ثمّ يضيف رسول اللّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ قائلًا: «وَمَنْ كانَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللّهِ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ اللّهِ عِنْدَهُ، فَإِنَّ اللّهَ تَعالى يُنْزِلُ الْعَبْدَ حَيْثُ أَنْزَلَ الْعَبْدُ اللّهَ مِنْ نَفْسِهِ. وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمالِكُمْ عِنْدَ مَليكِكُمْ وَأَزْكاها وَأَرْفَعَها فِي دَرَجاتِكُمْ وَخَيْرَ ما طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ذِكْرُ اللّهِ تَعالى فَإِنَّهُ تَعالى أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ فَقالَ: أَنَا جَليسُ مَنْ ذَكَرَني»[1].

أهمية التوجّه إلى حضور الله

إنّ التشرّف بمحضر العظماء والتوفيق لمجالستهم يعدّ فخرًا كبيرًا للإنسان، ففي كلّ مجتمعٍ يتمتّع بعض القادة والعظماء بنوعٍ من العزّة والعظمة، إلى درجة أنّ النّاس يكونون مستعدين لتحمّل الكثير من الصعاب لقضاء ولو عدّة لحظات في محضرهم. في زماننا هذا، يتمتّع الإمام الخميني بشخصيةٍ لا نظير لها وعظمةٍ وعزةٍ لا مثيل لها في أعين الشعب، فحبّ النّاس وعشقهم الكبير له، قد وصل إلى حدٍّ أنّ الناس ولأجل لقائه لا يعرفون رؤوسهم من أقدامهم؛ فهم يأتون في الحرّ والقيظ ومن مناطق نائية إلى جماران، ليلتقوا بالإمام لعدّة لحظات من عمرهم، وبالنسبة لهم لا يوجد فخرٌ أعلى من لقاء الإمام. تصوّروا الآن، هل أنّ لقاء اللّه أهم وأعلى، أم لقاء هذه الشخصيات العظيمة مثل الإمام، الذي هو عبدٌ من عباد اللّه؟ هذا اللقاء هو

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦٣.



لقاء مع من هو دومًا حاضرٌ وناظر، وإمكانيّة اللقاء به ميسّرة للإنسان، فلا يحتاج إلى الكثير من المقدّمات والتدابير.

نحن أُوصينا، ونستطيع أن نكون في ذكر اللّه على الدوام، وأن نحفظ ارتباطنا بالساحة الربوبيّة المقدسة، وأن نعمل على تقويتها. إنّ المستحبات والآداب الشرعية التي اعتُبرت لأجل سلوكياتنا وأعمالنا المختلفة، إنّما هي من أجل أن لا ننسى اللّه أبدًا، وأن نكون متوجهين إليه في كل الأحوال. لو قيل لنا قولوا قبل تناول الطعام «بسم اللّه الرحمن الرحيم»، وبعد الانتهاء منه «الحمد للّه»، فذلك من أجل أن لا ينقطع توجّهنا إلى اللّه، وحين يبقى هذا التّوجه، فإننا نسعى لتناول الطعام الحلال، واجتناب الطعام الحرام، أو الذي يكون فيه شبهة الحرام. فمراعاة هذه الآداب في كل تفاصيل حياتنا، بالإضافة إلى أنّها تمنحنا فخر مجالسة وإدراك محضر اللّه، فإنّها تهيّئ لنا الأرضيّة لارتقائنا وتكاملنا المعنويّ؛ فنفس الإنسان ضعيفةٌ، ومن الممكن للأهواء النفسانية، والوساوس الشيطانية، والجاذبيات الماديّة والدنيويّة أن توقعنا في كلّ لحظة في الغفلة، وأن تؤدي إلى فشلنا في طيّ المسير. لكن إذا توكّلنا على اللّه المتعال، وحفظنا ارتباطنا بمبدأ الفيض والرّحمة، فلن يكون لهذه العوامل أي تأثير أو فاعليّة، وسيحفظ المدد الإلهي حرم قلوبنا، ويصونها من تأثير تلك العوامل غير الإلهيّة، ويحول بيننا وبين الوقوع في مأزق الغفلة، وقد ورد في حديث عن النبي الأكرم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، إنّ اللّه تعالى يقول: «إِذَا عَلِمْتُ أَنَّ الْغَالِبَ عَلى عَبْدي الاشْتِغالُ بي نَقَلْتُ شَهْوَتَهُ في مَسْأَلَتي وَمُناجاتي، فَإذا كانَ عَبْدي كَذلِكَ فَأَرادَ أَنْ يَسْهُوَ حُلْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَسْهُو، أُولئِكَ أَوْلِيائي حَقًّا، أُولئِكَ الأَبْطالُ حَقًّا، أُولئِكَ الَّذينَ إِذا أَرَدْتُ أَنْ أُهْلِكَ أَهْلَ الأَرْضِ عُقُوبَةً زَوَيْتُها عَنْهُمْ مِنْ أَجْلِ أُولئِكَ الأَبْطالِ»[1].

لكلّ إنسانٍ في الدنيا تعلّقٌ قلبي وميل نحو شيءٍ ما وهدفٍ يصبو إليه. إنّ اللّه تعالى يقول إنّ أولئك الذين يصرفون أكثر أوقاتهم في الدنيا من أجلي، وليس لديهم توجّهٌ إلى أحد أو تعلّق قلبيّ بسواي، ويتحرّكون على طريق تحقيق إرادتي، فإنّني سوف أجعل ميلهم وأنسهم وتعلّقهم بمناجاتي وذكري، لكي لا يلتذّوا ولا

(١) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٩٠، الصفحة ١٦٢.



يأنسوا سوى بمخاطبتي. إذا وصلت همّة العبد وسعيه وتضحيته ومقاومته لأهوائه النفسانية والوساوس الشيطانية، وصبره أمام ميوله الذاتية إلى هذه المرحلة، وأرادت العوامل الطبيعية والدنيوية أن تصرفه عن ذكري وعن التوجّه إليّ ونسياني فسوف أحول دون ذلك، وأجعله يذكرني ويتوجّه إليّ.

أولئك الذين لهم تجربة على مستوى تهذيب النفس وبناء الذات، يعلمون أنّه يوجد بعض العوامل التي تؤسّس للغفلة والمعصية في الإنسان. في المقابل، لأنّ للّه تعالى عناية خاصّة بهذا الإنسان، فإنّه يوجّهه إليه عبر الطرق والوسائل المختلفة، ويمنعه من الغفلة والوقوع في ورطة المعصية. على سبيل المثال، قد يسمع صوتًا، أو تتجسّم أمام ناظريه صورةٌ ما، أو يسطع نورٌ في قلبه ويكون سببًا ليقظته وتنبّهه؛ وبلا تشبيه سيكون مثله كمثل ذلك الشخص الذي لديه محبوبٌ يذكّره دائمًا بنفسه، ولا يُنسيه نفسه لحظةً واحدة؛ فإذا كان هناك مجلسٌ ما، وكان محبوبه حاضرًا فيه، فإنّ محادثة الآخرين سوف تجعله غافلًا عن محبوبه، وفجأة يناديه محبوبه من تلك الجهة في المجلس، ويُلفت نظره إليه. إنّ العاشقين للّه أودعوا القلب عنده، وضحّوا كثيرًا، وسعوا كادحين، وبذلوا أنفسهم على طريق الوصول إليه، وإيجاد الرابطة القوية به؛ فإذا أرادت بعض عوامل الغفلة أن تمنعهم من ذكر المعشوق الحقيقي والتوجّه إليه، فإنّ هذا المعشوق والمحبوب الوفي، سيحول دون ذلك، ويحفظ حرم القلب العاشق مقابل نفوذ الشياطين.

يقول اللّه تعالى بشأن هذه الفئة من عباده، الذين وصلوا إلى مثل هذا المقام والمنزل العظيم: إنّ هؤلاء هم أحبّائي الحقيقيّون، والأبطال الواقعيّون، وبسبب منزلتهم عندي، فإنّه لو أصبح المجتمع الذي يعيشون فيه مستحقًّا للعقاب والإهلاك بسبب طغيانه ومعاصيه، فسوف أرفع العقوبة والهلاك عنه ببركة وجود هؤلاء العباد الخالصين.

لا شك بأنّ أولئك الذين وصلوا إلى هذا المستوى من المعرفة والارتباط باللّه هم أهل الذكر؛ فأهل الذكر هم أولئك الذين يداومون على ذكر اللّه، ولا يغفلون عنه لحظةً واحدة؛ لا ذاك الذي يتلفّظ كل حين بأنواع الذكر، إلّا أنّه لا يتوجّه إلى اللّه، ولا يتجلّى ذكر اللّه في سلوكه وعمله وحياته. حسب كلام الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الخطبة، إذا كان الإنسان من أهل الذكر، فإنّه سيستبدل الدنيا بذكر اللّه؛



وعوضًا عن أن يعلّق القلب بالدنيا ومظاهرها، سيربطه بذكر اللّه، وسيكون الأنس باللّه أعلى اللذات التي يعيشها.

حقيقة مقام الأنس باللّه ومحبّته

لا يوجد في قلوب أهل الذكر الحقيقيين محلًّا لحبّ الدنيا والتعلّق بها، ذلك لأنّه لا يمكن للأنس باللّه وذكره، أن يجتمع مع التعلّق بالدنيا وحبّها؛ فأولئك الذين ارتبطوا باللّه، وأدركوا هذا الحبّ الإلهيّ، الذي لا يمكن أن يوصف، ليس لهم ارتباطٌ بغير اللّه؛ وهم يعتبرون أنّ ترجيح حبّ غير اللّه على حبّ اللّه ليس له أيّ مبررٍّ منطقيّ وعقلانيّ. يمكننا أن نشاهد تجليًّا صغيرًا جدًّا ومحدودًا لهذا الارتباط والمحبة بين اللّه وأهل الذكر في العلاقة بين الأم وابنها؛ فمن بين العلاقات الطبيعية وأنواع الحبّ الموجود بين البشر، فإنّ حبّ الأم لولدها هو الأعمق والأكثر خلوصًا، فمثل هذه المحبة تكون شديدة إلى درجة أنّ الأمّ تُفني نفسها، وتبذل صحّتها من أجل أن يحيا ابنها ويكبر، وتضحّي بشبابها وراحتها وسعادتها من أجله. في المقابل، لا يكون الطفل مستعدًّا للانفصال عن أمّه لحظةً واحدة، فإذا شغله اللعب، وانصرف إلى اللهو، فإنّه سيشعر بعد مدّة بضيق الصدر، ويرجع إلى حبّ أمّه، ولا يشعر بالطمأنينة والسكينة إلّا في حضنها. إنّ ارتباط الأم والطفل، والمحبّة التي تنشأ بينهما، لا يمكن مقارنتها بارتباط العبد باللّه، وحبّ اللّه لعبده، فحب الأم لطفلها، هو كأدنى درجات حبّ اللّه لعبده.

إنّ الخالق والعلّة الحقيقية لوجود الطفل هو اللّه تعالى، أمّا الأم والأب فليس لهما سوى دور الوساطة والأداة، وبهذا التصوير، كيف يمكن أن نقارن بين هذه العلاقة، والعلاقة التي تربط العبد بربّه؟ هذه الرابطة التي يكون وجود الإنسان وحياته قائمَين بها، وهي من العظمة والجلال حيث إنّ اللّه تعالى ينسب روح الإنسان إليه، ويقول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾[1].

إنّ جميع العناصر التي تشكّل وجود الإنسان هي من اللّه تعالى، وإنّ مبدأ وخالق جميع الأشياء هو اللّه، لكنّ اللّه قد نسب الروح إلى نفسه من بين جميع

---

(١) سورة الحجر، الآية ٢٩.



الأشياء، ومثل هذا الانتساب يحكي عن عظمة وشرف الروح الإنسانية، وارتباطها الوجودي الوثيق المحكم بالله؛ ومع وجود هذا الارتباط التكويني الذي لا ينفصم، فإنّ فطرة الإنسان تقتضي أن يأنس الإنسان بالله، وأن يتوجّه إليه، وأن يشعر بالأمن والطمأنينة بذكره. لكن على بالرغم من وجود هذا الميل الفطريّ، فإنّ روح الإنسان، وبسبب ارتباطها بالدنيا ولذائذها، تُصاب بالآفة، وتنحرف عن مسيرها الأساسي، وترجّح تلك الأشياء التي لا تؤمّن لها مطالبها الفطرية ومصالحها الواقعية على الارتباط بالله. كما نعلم إنّ الإنسان، حسب طبيعته، يلتذ بالهواء النظيف والنسيم العليل، ويشمئز من الهواء الملوّث والمليء بالدخان، لكنّه حين يعتاد على دخان السيجارة المزعج، فإنّ هذا الدّخان يصبح بالنسبة له أكثر لذّة من الهواء النظيف والعليل.

إنّ مقتضى الفطرة الإنسانية هو الأنس الخالص بالله الذي لا ينقطع؛ وكما مرّ سابقًا، فبمقتضى هذه الرابطة الوجودية بين الله والإنسان، فإنّ هذا الأنس وهذه المحبة يكونان أكثر بكثير من الأنس بالأم ومحبّتها؛ فلو جمعنا كل الحبّ الذي ظهر من الأمهات منذ بداية الخلقة وحتى نهايتها، فإنّها لن تكون سوى قطرة من بحر حبّ الله لعبده بل أقل. إنّ الله تعالى هو مظهر الحب، وخالق كل أنواع الحب والخير، وليس الأنس والحب الذي يظهر من الأم تجاه ولدها سوى مظهر وجلوة من محبّة الله. لو وصل أحدٌ إلى مقام الأنس بالله، وذاق طعم ذكر الله، فلن يكون لأي لذة من لذائذ الدنيا طعمًا في ذائقته، ولن يستبدل المناجاة بالله والأنس به بأي لذّة أخرى؛ لهذا نجد الإمام السجاد عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يقول في مناجاة الذاكرين: «وَأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّة بِغَيْرِ ذِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ راحَة بِغَيْرِ أُنْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ سُرور بِغَيْرِ قُرْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ شُغْل بِغَيْرِ طاعَتِكَ»[1].

إنّ حبّ الطفل وأنسه بأمّه يجعله يسرع إلى حضنها، ويلتجئ إليها، حين يؤلمه الجوع والتعب، أو حين يتعرض لأذيّة من شخص ما، فيجد في ذلك السكون والطمأنينة، ويرفع عن نفسه الألم والازعاج. إنّ الذي يأنس بالله، وينال تلك اللذة الحقيقية والصافية من الوصول إلى جوار الله وقربه، فإنّه حين يتعرض لمصيبة، أو

---

(١) **الصحيفة السجادية**، مناجاة الذاكرين.



يحدق به خطرٌ ما، يلجأ مباشرة إلى اللّه، ويشعر بالأمن والطمأنينة واللذة في ظلّ حماه، وبالاتّكال على القدرة الإلهية المطلقة، لن يخشى أيّ قوّة، ولا ينحني مقابل سيل المخاطر والمصائب التي تنهمر عليه.

إنّ أعلى مراتب الأنس والارتباط باللّه موجودٌ في حضرات المعصومين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ويوجد مراتب أدنى منه في العلماء الرّبانيين. إنّ مطالعة أحوال هؤلاء العظماء، ترشدنا إلى مقام الأنس باللّه وذكره ولذّة مناجاته. نُقل حول المرحوم الشيخ الأنصاري، أنّه كان ذات يوم من أيام الصيف الحار في مدينة النجف، راجعًا إلى بيته وهو في منتهى التعب والعطش فطلب ماءً باردًا؛ في ذلك الزمان، كانوا يحفرون داخل باحة المنزل بئرًا ينتهي إلى سرداب عميق، ويتركون الدلو في هذا البئر ليبقى باردًا، فوقف المرحوم الشيخ ينتظر وصول الماء البارد، واغتنامًا للفرصة بدأ بالصلاة، وصدف أن وصل إلى حالة معنويّة، فقرأ بعد سورة الفاتحة سورة طويلة، فطالت صلاته إلى درجة أنّ الماء الذي استُخرج باردًا ووُضع إلى جانبه أصبح حارًّا، كان لذكر اللّه في الصلاة طعمٌ لذيذٌ في قلبه، وكان لهذا الذكر برودة في نفسه بحيث أنسته عطش الصيف وحرّه، فرطّب فمه بالقليل من الماء، ووضعه جانبًا.

أهل الذكر ومشاهدة عالم الآخرة

إنّ أولئك الذين ذاقوا حلاوة الأنس باللّه، وجعلوا قلوبهم مأوى ذكره، وتشرّفوا بخلوة المناجاة مع معشوقهم، فهذه الدنيا ولذائذها وزخارفها ستبهَت أمام أعينهم، وبِتَنوُّر أعينهم بمشاهدة الحقائق التي تتجاوز هذه الدنيا والماديات، يفقدون رغبة البقاء فيها، فما بالك بتعلّق القلب بها. قال أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ»[1]. رغم أنّهم يعيشون في هذه الدنيا، إلّا أنّ رغبتهم فيها انقطعت، وتعلّقوا بالآخرة. لقد وصلوا إلى درجة من المعرفة، وطووا مسير بناء الذات والتكامل، حتى شاهدوا الدار الآخرة، واطّلعوا على ما يجري على أهل البرزخ؛ أينما كان هؤلاء، وحين يتحدّثون مع النّاس، فإنّ قلوبهم تكون مع اللّه ومتوجّهةٌ إليه، لا يصرفون القلب لحظةً واحدة عن الأنس به؛

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٤٢.



فهؤلاء الذين اطّلعوا على حقائق عالم الوجود، وعاينوا عصارة القيم والكمالات، وأدركوا حقارة الدنيا ومظاهرها الخدّاعة، ويتعجّبون من إقبال الناس عليها. هم مدهوشون كيف أنّ الناس يتكالبون على هذه الجيفة النّتنة، ويسعى كل واحدٍ منهم بكل حيلة ودهاء أن يسبق الآخرين، ويضيّق الطريق على منافسيه. بالنسبة لهؤلاء، يؤسفهم كيف أنّ الناس تعلّقوا بالدنيا، وكيف أنّهم يأنسون بلذائذها، وكيف عمِيَت أعينهم عن أعلى اللذائذ، ألا وهي ذكر اللّه. حقًّا يُقال، لماذا يعتمد الكثير من الناس على القوى الماديّة والدنيوية بدل الاتكال على اللّه؟ أليس كل ما يتحقّق في هذا العالم، إنّما يتحقّق في ظلّ قدرة اللّه؟

حين يرى الناس أهل الذكر وعُشّاق الأنس باللّه لا يكترثون للدنيا ولذائذها، يتعجّبون من مرورهم على هذه اللذائذ غير مكترثين ولا مبالين. لماذا تكون القصور وأكداس الذهب والمال سيّان مع حفنة التراب والرّماد بالنسبة لهم؟ هؤلاء غافلون عن أنّ أولئك قد وصلوا إلى تلك اللذة، التي لم يعد معها للذّات الدنيا أي قيمة أو أهمية بنظرهم. يُقال إنّ شخصًا لم يكن قد شاهد المدينة بعد، ولم يكن يعرف عن أوضاعها وأحوالها شيئًا، فجاء ذات يوم إلى المدينة، وذهب إلى السوق، ودخل إلى محل الحلوى، وحين شاهد أنواع الحلوى وصنوفها موزّعة في هذا المحل، ورأى صاحب الدكان جالسًا بسَكينة ولا يأكل منها شيئًا، تعجّب وتصوّر أنّه أعمى، فحرّك يديه أمام عينيّ صاحب المحل ليتأكد من أنّه يُبصر، وحين أدرك بأنّه لا يأكل من هذه الحلوى رغم رؤيته لها، قال له متعجّبًا: كيف تراها جميعًا ولا تأكل منها؟

يقول أحد أساتذتنا إنّه في زمان المرحوم الشيخ الأنصاري،كان طلبة العلوم الدينية يعيشون بمنتهى الفقر والبؤس، فجاء أحد الأشخاص بعدّة أكياس من الذهب إلى الشيخ، ووضعها في مدخل منزله وطالبه بإيصال. لكنّ الشيخ المرحوم امتنع عن إعطائه هذا الإيصال، وكان قد وضع هذه الأكياس تحت يده، وكأنّه لا يعتني بها؛ رغم إصرار ذاك الشخص وإلحاحه، إلّا أنّ الشيخ المرحوم لم يقبل؛ فقال ذلك الشخص للشيخ: إنّني أحمل أمانة، وقد أُودِعت بيدي لكي أوصلها إليك، فما هو ذنبي أنا حتى لا تعطيني الإيصال؟ فتوجّه أحد أقرباء الشيخ المرحوم، وقال له: لماذا لا تقبل هذه الأمانة ولا تعطي إيصالًا؟ فقال الشيخ المرحوم: إنّ هذا الوسيط الذي أخذ هذا الذهب من الصرّاف، وجاء به إلى هنا، هو ليس من أهل الطهارة، وأنا لا أريد أن تصل يده إلى الإيصال الذي أكتب عليه اسم اللّه، حين



يكون الوسيط مسلمًا أعطيه الإيصال؛ وأقسم المرحوم الشيخ أنّه لا فرق في نظره بين هذا الذهب وحفنة الرماد، وليست هذه سوى أمانة ينبغي أن أوصلها إلى أهلها، ولو كانت لي أنا فلن يكون لها أهمية بنظري، لأنّها ستكون بيدي عدّة صباحات، وفي النهاية سوف أودعها وأذهب.

على أيّ حال، فلأجل أن يصل الإنسان إلى الكمال، ويتزيّن بالسلوك والفكر العلويّ، ولا تكون ثروات الدنيا بالنسبة له ذا بال، حيث يرتكب أي معصية تسنح له من أجل الوصول إليها، ينبغي أن يحيي ذكر اللّه في قلبه. لو أحبّ الدنيا عوضًا عن التوجّه إلى اللّه، فسوف يكون مستحقًا للعقوبة الإلهية والطرد من محضر الباري تعالى؛ وبشأن هؤلاء يقول اللّه تعالى للنبي: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1]. وفي موضعٍ آخر يقول تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾[2].

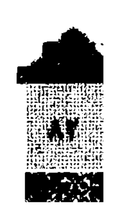
إنّ اللّه تعالى يأمر نبيّه أن يبتعد عن أولئك الذين لم يطلبوا سوى الحياة الدنيا، وقدّموا شهواتها ولذائذها على ذكر اللّه والإقبال على الآخرة. لقد غفلت هذه الجماعة عن اللّه بسبب شدّة توجّهها إلى الدنيا، بحيث أنّهم اعتبروا أنّ قضاء الوقت في الأمور العبادية والمعنوية والتوجّه إلى اللّه مضيعة للعمر وإهدارٌ للوقت؛ وما أكثر ما يصل أمر هؤلاء إلى حيث أنّه إذا ذكر اللّه وأولياؤه، فإنّهم يسعون لحرف الكلام، وهذا على عكس حضرة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حينما سمع جبرائيل يقول: «سبوح قدوس» فقال: إنّ من يذكر محبوبي مرّة أخرى سوف أعطيه نصف مالي، وبعد أن كرّر جبرائيل هذا الذكر قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إنّ من يذكر محبوبي مرّة أخرى سأعطيه كلّ مالي. أمّا عُبّاد الدنيا، لا أنّهم لا يلتذّون باسم اللّه فحسب، بل قد فتنتهم الدنيا بزخرفها وزبرجها، واستولت على قلوبهم، بحيث أنّهم وبحسب تعبير **القرآن**، حين يُذكر اسم اللّه يشمئزّون ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٢٨.

(٢) سورة **النجم**، الآية ٢٩.

(٣) سورة **الزمر**، الآية ٤٥.



من الطبيعيّ أنّ الحياة الدنيا بالنسبة للذي لا يؤمن بالآخرة ستصبح هدفًا ومقصدًا، ولن يطلب غير هذه الحياة الدنيّة، وسوف يشمئز ويتألّم من كل ما يمكن أن يحول بينه وبين هذه اللذائذ المادية؛ لهذا فإنّه لا يريد أن يُذكر اللّه في محضره، أو أن يُقرأ **القرآن** عنده، ويأتي ذكر الموت، لأنّه قد شُغف بهذه الحياة واستولت على قلبه. هذه المرحلة من السقوط والانحطاط هي عاقبة ذاك الذي ابتعد بالتدريج عن فطرته، وبدل التحرّك على طريق الفطرة، وعبادة مبدأ الخلق والعمل بإرادته، فقد رفع راية الطغيان والعصيان؛ وبعد أن سقط في فخ أهواء النفس ووساوس الشيطان، جعل عبادة الدنيا والإقبال على لذّاتها وشهواتها محور سلوكه وفكره؛ فلا يمكن لمثل هذا الشخص أن ينبعث فيه التوجّه إلى اللّه والرغبة بذكره، وذلك لوجود التضاد الواضح بين ذكر اللّه والتعلّق بالدنيا.

موانع الذكر بحسب القرآن

حيث وصل الكلام إلى هنا، فمن الجدير أن نشير إلى موانع الذكر من وجهة نظر القرآن الكريم:

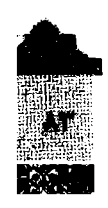
١. من موانع الذكر، البطر والتوجّه المفرط إلى الدنيا، يقول اللّه تعالى في هذا المجال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾[١].

إنّ الميل إلى التوحيد وعبادة اللّه والإقبال عليه تعالى، كل هذا نابعٌ من الفطرة؛ فمنذ بداية تفتّح القوّة العقلية، إنّ أحد أهم الأفكار التي تشغل بال الإنسان هي أن يعرف خالقه؛ مع ذلك، ورغم كل مساعي الأنبياء الإلهيين، فإنّ ثلّةً قليلةً تختار طريق الفطرة والعقل السليم، وعدد الضالّين في كلّ عصر هو عادةً أكثر. يقول اللّه تعالى بالإشارة إلى هذه الحقيقة: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٢]. وعلى هذا الأساس، أشار اللّه تعالى إلى تأثير الدوافع المادية والرغبات الدنيوية في الحؤول دون التوجّه إلى ذكر اللّه، فالاندفاع المفرط نحو المادة والدنيا والإقبال الفائق على

---

(١) سورة **المنافقون**، الآية ٩.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٣.



الأموال والأولاد، يلوّث روح الإنسان، ويسلبه الصفاء والجلاء؛ وإذا لم يعالج هذه الغفلة عن اللّه في وقتها، فسوف يعاني الإنسان من الخسران في العالمين. إنّ الغفلة عن اللّه تؤدّي إلى انحراف الإنسان عن الهدف الأساسي للحياة، وانشغاله بتلك القضايا التي ترتبط بهذه الحياة الدنيوية المحدودة والفانية وما يعقبها من الخسران الأبدي.

٢. من الموانع الأخرى للذكر، أن ينظر الإنسان إلى ظاهر هذه الحياة، ولا يأخذها على محمل الجدّ. يقول اللّه تعالى في **القرآن الكريم** بشأن هذه القضية: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾(١).

يعتبر الإنسان المؤمن عالم الوجود مخلوقًا من قبل إلهٍ حكيم محيط، وعلى هذا الأساس فإنّه لا يمر على أي موضوع مهما كان صغيرًا بسطحية، فيتذكّر اللّه الحكيم عند مواجهة أي شيء. أمّا الإنسان الفاقد للإيمان، فإنّه يرى الحياة ظاهرة تصادفية، ويعتبر حوادث العالم أمورًا عبثية، وينظر إلى الموت على أنّه نهاية هذا العالم؛ فهو لا ينظر سوى إلى ظواهر الحياة الدنيا، ويغفل عن عاقبة أمره.

٣. من موانع الذكر الأخرى القرناء المضلّون. نقرأ في **القرآن الكريم** بشأن هذه القضية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾(٢).

يُنقل أنّه كان هناك رجلان في عصر النبيّ الأكرم صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُدعيان بـ «عقبة» و«أُبيّ»، وكانا صديقَين حميمَين، فكان كلّما رجع عُقبة من السفر، يقيم مأدبة كبيرة، وبالرغم من أنّه لم يؤمن بالإسلام، لكنّه كان يحبّ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، ويدعوه إلى مأدبته؛ وذات يوم، وبعد أن أقام تلك المأدبة، قال له النبيّ: إنّني لن أتناول من طعامك إلّا بعد أن تشهد بوحدانية اللّه وتصدّق برسالتي، ففعل ذلك؛ ولكن حين اطّلع صديقه أُبيّ على ما حدث، لامَهُ ووبّخه لأنّه انحرف عن دين آبائه؛ فقال له عقبة: إنّ النبيّ لم يكن مستعدًّا أن يتناول من طعامي إلّا إذا أسلمت، وقد

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٧.

(٢) سورة **الفرقان**، الآيات ٢٧-٢٩.



خجلت من ألّا يتناول أحد من مائدتي، ويقوموا عنها. فقال له أُبَي: إنّني لن أرضى عنك أبدًا، إلا أن تقف مقابل النبيّ وتهينه؛ وهكذا فعل عقبة، فخسر بسبب هذا الموقف دنياه وآخرته. وقاتل في معركة بدر مع المشركين وقُتل، فنزلت هذه الآيات المذكورة بشأنه.

لا شكّ أنّ الأصدقاء والجلساء هم من العوامل المؤثّرة في تشكّل شخصية الإنسان؛ فعِشرة المنحرفين وسلوكهم وحديثهم يؤثّر في ذهن الإنسان وروحه وسلوكه، وبحسب العادة، فإنّ مثل هذا التغيير يكون هادئًا وتدريجيًا، بحيث لا يلتفت إليه الإنسان.

٤. إنّ تسلط الشيطان على الإنسان هو أحد الموانع المهمّة من الذكر، يقول اللّه تعالى بصدد هذه القضية: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾(١).

إنّ لفظ «استحوذ» تعني التسلّط الكامل للشيطان على الإنسان، وكأنّه بمثل هذه الحالة يسلبه الاختيار، وإنّما تحصل مثل هذه الحالة للإنسان، بعد أن يغوص في المعاصي والانحراف لمدّة طويلة بوعيٍ واختيارٍ منه. ونجد أن الإمام الحسين عَلَيۡهِ‌السَّلَامُ، قد خاطب جيش يزيد في يوم عاشوراء قائلًا: «لَقَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْكُمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاكُمْ ذِكْرَ اللَّهِ الْعَظِيمِ»(٢).

٥. من موانع الذكر، تلك الآمال الطويلة، يقول اللّه تعالى في كتابه الكريم في هذا المجال: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾(٣).

لقد منح اللّه تعالى البشر المواهب والقدرات، التي لو استعملوها في محلّها وبالشكل الصحيح، لاستطاعوا أن يحققوا رفاهيتهم المادية وتكاملهم المعنوي والروحي، ولعمّروا بذلك دنياهم وآخرتهم. لكن ممّا يؤسف له أنّ الناس، وفي أغلب الأحيان، لا يستعملون هذه الإمكانات في محلّها، بل يتعاملون معها بالإفراط أو التفريط بدل أن تكون في خدمة تكاملهم؛ وهكذا يهيئون لأنفسهم أسباب السقوط المادّي والمعنوي. من جملة هذه الخصائص التمنّي، وهو الذي إذا كان على نحو

---

(١) سورة **المجادلة**، الآية ١٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٥، الصفحة ٦.

(٣) سورة **الحجر**، الآية ٣.



معقول ومنطقيّ، ويستشرف المستقبل، فإنّه لن يكون مفيدًا فحسب بل ضروريًّا، لكن حين يخرج هذا العامل عن حدّه، ويتحول إلى طول الأمل، فإنّه يتحوّل إلى سببٍ للشقاء والغفلة.

٦. يمكن اعتبار اتّباع الهوى أيضًا، من الموانع المهمّة للذّكر، يقول اللّه تعالى في هذا المجال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1]. إنّ الذي يُبتلى باتّباع الهوى، لن يُفكّر سوى بإشباع شهواته، وسوف يحرمه هواه من ذكر اللّه، الذي يُعتبر منبع التوجّه إلى جميع الخصال الإنسانية الرّاقية.

انسجام عبادة اللّه والتوجّه إلى الآخرة مع الأنشطة الفردية والاجتماعية

لو قيل إنّ حب الدنيا وعبادتها يتضادان مع عبادة اللّه، وأنّ التعلّق بالدنيا يبعث على الغفلة عن ذكر اللّه، فلا يعني هذا أن ينسحب الإنسان من كل عملٍ وسعي ونشاط، ويُهمل مسؤولياته الشخصية والاجتماعية، ويُحرّم لذّات الدنيا ونعمها على نفسه، بل إنّ المذموم الذي يؤدي إلى الغفلة، هو حب الدّنيا والتعلّق القلبي بها؛ فأداء الوظائف والمسؤوليات، وتأمين الاحتياجات المادية والدنيوية والعمل والسعي، كل ذلك يختلف عن التعلّق بالدنيا وعشقها والشغف بها. إنّ تأمين الاحتياجات وكسب الرزق الحلال، وتدبير أمور الحياة والعمل والسعي، كل ذلك يُعدّ من المسؤوليات التي أوجبها اللّه على الإنسان. من هنا، يجب علينا أن نسعى في كل هذه المجالات، تحت عنوان طاعة اللّه والامتثال لأمره؛ بالإضافة إلى ذلك، فإنّ العمل والسعي يحفظ عزّة المجتمع الإسلامي وكرامته في مقابل الكفّار، ويحفظ الاستقلال، ويمنع التّبعيّة للأجانب. ألم يكن أمير المؤمنين عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعمل؟ فقد كان هذا الإمام يحفر القنوات والآبار بيده، ويزرع الكثير من النخيل، ويجعلها وقفًا للفقراء.

من هنا، إنّ الكسب والعمل وأداء الأنشطة الفردية والاجتماعية، كل ذلك بحدّ ذاته ليس مانعًا من ذكر اللّه، ولا يؤدي إلى الغفلة عنه، فإذا لم يكن نابعًا من حب الدنيا وعشقها والتعلّق بها، واستفاد من نتائجه الفقراء والمحتاجون

---

(١) سورة **الكهف**، الآية ٢٨.



والمجتمع الإسلامي، فإنّه يكون نتيجة وثمرة عشق اللّه واتّباع أوامره، كما كان حال الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ. إنّ شرف الإنسان وكرامته في أن يكون متوجّهًا إلى اللّه؛ وهو في خضم الآمال والرغبات المتضادّة، وفي الوقت الذي يكون منشغلًا بالعمل والأنشطة والهموم المعيشيّة اليوميّة. إنّ الإسلام يريد أن يُربّي مثل هذا الإنسان الذي يكون متوجّهًا إلى اللّه في كل شؤون حياته وأنشطته ومشاغله اليوميّة، ويجعل كل شيءٍ في سبيل اللّه؛ لا أن يعتزل المجتمع، ويمتنع عن تشكيل أسرة، ويُهمل العمل والحياة، ويجلس في إحدى الزوايا، ويحمل السبحة ويتلو الذكر. إنّ الفن في أن يكون الإنسان ذاكرًا للّه أثناء سعيه وقيامه بالأنشطة المختلفة، وأن يجعل كل عملٍ في مكانه المناسب؛ وكما نلاحظ فإنّ هذا الفهم ينسجم تمامًا مع الآيتين ٣٦ و ٣٧ من سورة **النور** اللتين تلاهما الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في مطلع خطبته. في هذه الآيات الشريفة، لم يقل اللّه إنّ الذين يقومون بالليل وفي أوقات السحر والزاهدين لا يعملون، بل قال إنّ سعيهم ونشاطهم اليومي لا يجعلهم غافلين عن ذكر اللّه. على هذا الأساس، اعتُبر التكسّب والعمل والقيام بالأنشطة الاجتماعية أمرٌ مفروغٌ منه بالنسبة لأولياء اللّه.

السّر في أنّ التكسّب والتجارة وأمثالها لا تثني المؤمنين عن ذكر اللّه، هو أنّهم بينما يكونون في خضم العمل والتكسّب، فإنّهم يعتبرون بأنّ اللّه هو الرزّاق، وهو الذي يؤمّن لهم عيشهم. لهذا، فهم يراعون الحلال والحرام، ويسعون لئلا يظلموا الآخرين، أو يخونوهم أو يجحفوا بحقّهم، بل يؤدّون لهم حقوقهم؛ في هذه الحالة، إنّ اللّه يجعل ارتباطهم به أكثر رسوخًا واستحكامًا، وإذا توجّهت قلوبهم إلى محلٍّ آخر، فإنّه سرعان ما يوجّهها إليه، ولا يسمح لظواهر الدنيا أن تؤدّي بهم إلى التعلّق بالدّنيا وحبّها. إنّ الوصول إلى مثل هذه المرحلة صعبٌ جدًّا، لكن إذا أردنا أن نصل إليها، بحيث نكون في حالة من الأنس الدائم باللّه وبذكره، ولا نغفل عنه أثناء العمل والسعي والقيام بالمسؤوليات الاجتماعية، يجب أن نسعى لنقلّل من حبّنا وتعلّقنا بالدنيا وثرواتها؛ وإحدى طرق التقليل من حبّ الدنيا وثرواتها، يكون بإنفاق تلك الأشياء التي نحبّها ونتعلّق بها، كما قال اللّه تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[1].

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.



إنّ الذي يرغب بالوصول إلى حالة الأنس بالله، وتحقيق رابطة الحب والودّ مع الله، يجب أن يُنفق ممّا حصل عليه بالتّعب والسعي، لا سيّما الأشياء الثمينة التي يتعلق بها ويفضّلها على الآخرين. لأجل الوصول إلى مقام الذكر الواقعيّ، يجب على الإنسان السعي ألّا يكون محبًّا للمنصب والمقام، فإذا رأى من هو أكثر جدارة منه، قادرًا على خدمة المجتمع، فعليه أن يتنحّى لمصلحته، ويدع ذلك المنصب والمقام له. كذلك يجب أن يستعمل طاقته لأجل خدمة الناس؛ وأن يكون مستعدًّا للتنازل عن سمعته وشأنيته التي تُعتبر من أثمن رساميله. باختصار، إنّ دوام الذكر يستلزم ألّا يكون في القلب أيّ حبٍّ وتعلّقٍ بهذه الأمور، لأنّ كل هذا التعلّق، سيكون بمنزلة الأغلال التي تقيّد قدميه، وتحول دون عروجه نحو الله ومقام قربه.

البحث في إمكانية حصول التوجّه الدائم إلى الله

إنّ دوام الذكر وإن كان قد مُدح كثيرًا، إلّا أنّ السؤال هو: كيف يمكن الجمع بين دوام الذكر بكيفيّته العالية والعميقة مع الحياة اليومية؟ وكيف يمكن تحقيق الانسجام بينهما؟ كيف يمكن أن يكون الإنسان ذاكرًا لله، في الوقت الذي يكون مشغولًا بالتحصيل والدراسة والسعي والعمل وأداء سائر الوظائف؟ فالذي يكون مشغولًا بالمطالعة، يحتاج لأن يركّز كل حواسه عليها، والذي يكون مشغولًا بأعمال لا يوجد أي سنخيّة بينها وبين العبادة والتوجّه إلى الله، كيف يمكن أن يكون ذاكرًا لله في الوقت نفسه، الذي يقوم فيه بهذه الأعمال؟ إذا كان الجمع بين التوجّه إلى الله وأداء المسؤوليات والواجبات اليومية غير ميسّر لعامّة الناس، فأيّ فائدةٍ تترتّب على مدح المداومة على الذكر والثناء عليه؟

عند دراسة هذه القضية يجب أوّلًا أن نرى، هل يمكن من الناحية الثبوتية لغير المعصوم أن يكون ذاكرًا لله في جميع شؤون حياته، ولا يغفل عنه؟ وفي حال إمكانية حصول هذا الأمر، يجب أن ندرس فيما إذا كان هذا الأمر من الناحية العمليّة مختصًّا بأشخاصٍ نادرين، أم أنّه بإمكان الأشخاص العاديّين أيضًا أن يكونوا في جميع أحوالهم ذاكرين لله إلى حدٍّ ما؟ فإذا كان الجواب على هذا السؤال بالإيجاب، حينها يأتي دور السؤال التالي: ما الذي ينبغي أن يفعله الإنسان، لكي يصل إلى مرحلة الذكر الدائم لله؟

لا شكّ أنّه في مقام الثبوت يوجد إمكانيّة للوصول إلى الذكر والتوجّه الدائم



إلى اللّه، يتبيّن ذلك في مطلع هذه الخطبة، كما أنّ الآيات والروايات في مجموعها تؤيّد هذا الأمر؛ لتقريب المسألة إلى الذهن، يمكن الإشارة إلى نماذج من الحياة اليومية؛ على سبيل المثال، أحيانًا تحصل مسائل في الحياة تستغرق كل تفكير الإنسان وحواسه وانتباهه، فيكون في حالة تفكيرٍ دائمٍ بها، إلّا أنّ هذا التوجّه الدائم لهذه المسائل، لا يمنعه في الوقت نفسه من القيام بأنشطته المعتادة؛ فإذا ابتلي أحدٌ لا سمح اللّه بفقدان عزيز، فإنّه سوف يعيش مثل هذه الحالة؛ حتّى أنّه في بعض الأحيان، هناك أشخاص لا ينسون أعزّاءهم حتّى بعد موتهم بسنوات، وكلّما رأوا شيئًا يتعلّق بهم، يتذكّرونهم. إنّ العديد من أمهات الشهداء وأسرهم، حتّى الآن لم ينسوا أعزّاءهم رغم مرور سنوات على استشهادهم، هؤلاء ورغم انشغالهم بوظائفهم وشؤونهم الحياتيّة اليوميّة، لكنّهم في أعماق قلوبهم قد سافروا إلى ذكر العزيز أيضًا، إنّ مثل هذا التوجّه لا يحول دون قيامهم بأنشطتهم وأعمالهم؛ حتى وهم على هذه الحال، فإنّهم يقيمون احتفالات الفرح، ويشاركون في مراسم الزفاف، لكن في الوقت نفسه، فإنّهم في أعماق قلوبهم ذاكرين لأعزّائهم.

بناءً عليه، ليس الأمر كما يُتصوّر أنّه لا يمكن أثناء القيام بالأنشطة اليوميّة المعتادة، التوجّه الدائم إلى شيء خارج دائرة هذا الأنشطة، وأنّ الجمع بين هذا التوجّه وتلك المشاغل اليوميّة أمرٌ محال.

من زاوية أخرى، يمكن القول إنّ مثل هذا التوجّه المستمر إلى شؤون الحياة، يحقّق نوعًا من الوحدة والانسجام، ويحول دون تشتّت القوى والطاقات؛ فمن جانب، نحن نحتاج إلى تركيز أذهاننا على الكثير من الأعمال والأمور كالمطالعة مثلًا، ومن جانبٍ آخر، فإنّ تشتّت الأعمال اليومية، يقضي على هذا التركيز الذّهني في الإنسان. إذا كان لدينا محورٌ واحد لتوجّهاتنا، واعتدنا على تركيز توجّهنا إليه بشكلٍ دائم، أي إذا اعتدنا أن نكون في ذكرٍ دائمٍ للّه، فإنّ الاستمرار في الذكر والتوجّه، وتركيز الفكر حول محورٍ ثابت، سيكون مانعًا من تشتّت الحواس.

إنّ التركيز الفكريّ الكامل على أمرين مستقلّين عن بعضهما هو أمرٌ غير ممكن بالنسبة لنا؛ نحن لا نستطيع في عين توجّهنا لغير اللّه، أن نركّز تفكيرنا على الساحة الإلهيّة المقدّسة، فلا نغفل عنها. صحيح أنّ الإنسان لا يستطيع أن يركّز تركيزًا كاملًا على شيئين مختلفين في الوقت نفسه. لكن ثبت في علم النفس أنّ للإنسان



القدرة على التوجّه إلى عدّة أشياء، وأن يكون له عدّة إدراكات في الوقت نفسه. لا شكّ بأنّ مقدار تلك الإدراكات وسعتها، ليس واحدًا في جميع الأفراد، نظرًا لتفاوت قدراتهم الذهنيّة.

بناءً عليه، إنّ الحديث عن قدرة الإنسان على التوجّه إلى اللّه من أعماق قلبه، أثناء انشغاله بالأعمال الحياتية اليومية، ليس أمرًا منافيًا للعقل، ولا كلامًا خاليًا من الصواب. يمكن أن نجد نماذج كثيرة مشابهة في دائرة الاهتمامات والتعلّقات الدنيوية؛ هناك الكثير من الأشخاص الذين يحبّون أشخاصًا محبّةً شديدة، وفي الوقت الذي ينشغلون فيه بأمور الحياة المختلفة، فإنّهم لا ينسوهم في جميع الأحوال، ويداومون على ذكرهم. من هنا، إنّ التوجّه المتزامن نحو عدّة أشياء لا يُعدّ أمرًا غير ممكن، وما هو غير ممكن هو التوجّه التام إلى عدّة أشياء متفاوتة ومستقلة عن بعضها البعض. إنّ التركيز على شيءٍ واحدٍ، يُعدّ أمرًا صعبًا جدًّا بالنسبة للأشخاص العاديين، ويصبحون قادرين على هذا العمل من خلال الرياضة والتمرين الكثير والمستمر. بالنسبة للأشخاص العاديين، إنّه لمن الصعب جدًّا أن يصلّوا ركعتَين حضور قلبٍ كامل، ولا يكون لديهم أيّ توجّه إلى غير اللّه من بدايتهما حتى نهايتهما.

على أيّ حال، إنّ التوجّه إلى اللّه في جميع الأحوال، لا يعني أن يكون توجّه الإنسان كاملًا نحو ذكر اللّه أثناء القيام بأعماله، بل إنّ ما يكفينا هو أن لا ننسى اللّه، مثلما يحدث حين لا ننسى ذلك العزيز الذي فقدناه، وأن لا تكون الأنشطة والأعمال اليومية مانعًا من توجّهنا إلى اللّه. لا ينبغي أن ننسى أنّ الوصول إلى هذا الهدف المقصود، يحتاج إلى السعي والتمرين، كما ينبغي أن نتوجّه، ونلتفت إلى وجود معادلة بين الحالات الروحية ومراتب الكمال الإنساني. إنّ ذكر اللّه والتوجّه إليه يؤدّيان إلى التكامل وسموّ الروح والنفس الإنسانية. من جانبٍ آخر، كلّما ارتقت النفس في مدارج الكمال، سوف ترتقي أيضًا كمًّا ونوعًا في توجّهها إلى اللّه؛ في المقابل، إنّ هذه المرتبة العليا للتوجّه، ستجلب معها مرتبة أعلى من كمال النفس، هكذا يستمر هذا التأثير والتأثّر المتبادل. حين يكون الإنسان بصدد أداء وظائفه، ويكون ذكر اللّه حيًّا في قلبه، فلو قام بتقوية هذا التوجّه والذكر من خلال الذكر اللفظي والعبادة، فإنّه سوف يأنس باللّه، وحين يدوم هذا الأنس باللّه ويستقر، فإنّ محبّة اللّه ستنبعث في القلب، بعد ذلك سوف يكون ذكر العبد لمحبوبه أمرًا تلقائيًّا، لا يمكن أن ينساه.



إنّ الأمر الذي يحوز على الأهمية بالنسبة للسالك في البدايات، هو وجود الذكر اللفظي والبرنامج العبادي المنظّم؛ وقد أُشير إلى هذا الأمر في **القرآن الكريم**، وأشار الإمام أيضًا إليه في مطلع هذه الخطبة. في الآية الشريفة، لا يدور الكلام حول انشغال هؤلاء بتسبيح اللّه طيلة الليل والنهار، لأنّ مثل هذا الأمر سيمنعهم من القيام بوظائفهم الاجتماعية الأخرى، بل إنّ المِلاك والمعيار هو في وجود برنامج منظّم للعبادة والتسبيح. إذا تحقّق مثل هذا البرنامج، سيكون أثره بأن يبقى هذا الذكر والتوجّه في القلب، الذي إذا قام الإنسان بتقويته والمداومة عليه، سوف يصل إلى مرحلة، لا يغفل فيها عن ذكر اللّه لحظةً واحدةً.

دوام العبادة والتّوجه إلى اللّه وطريق ذلك

إنّ الأشياء التي لا قيمة ولا قدر لها يمكن الحصول عليها بسهولة، في حين أنّ الحصول على الأشياء القيّمة والنفيسة هو أمرٌ صعبٌ، ويحتاج إلى بذل الجهد. من هنا، ونظرًا لقيمة ذكر اللّه وأهميته وعلوّه وتأثيره الكبير في تأمين سعادة الإنسان الدنيويّة والأخرويّة، فإذا أراد الشّخص أن يصبح دائم الذّكر، يجب عليه أن يسعى ويتمرّن لعدة سنوات؛ مثلما أنّه إذا أراد أن يكون بطلًا في أحد فروع الرياضة، فيجب عليه أن يتمرّن لمدة طويلة، ويواظب حتى يصل إلى مطلوبه؛ ومثلما نكدح لسنوات من أجل الوصول إلى العديد من مطالبنا ورغباتنا وأمنياتنا الدنيويّة، كذلك فإنّ الوصول إلى الكمالات الأخرويّة، يحتاج أيضًا إلى سعيٍ وكدح، لا كما نظنّ بأنّه يمكن أن نصل إليها بسهولة. في هذا الطريق، لا ينبغي أن نتوقّع طيّ مسافة مئة عام في ليلةٍ واحدة. ينبغي أن نكون دائمًا بصدد الخروج من المعاصي، وتطهير حرم القلب من الكدورات والقذارات المعنويّة، وأن نأخذ بعين الاعتبار وضع برنامج منظّمٍ ودائم للعبادات؛ فإذا لم يكن للإنسان برنامجٌ منظّمٌ للعبادة، وكان يعبد بحسب ميله ومزاجه فيقرأ على سبيل المثال في يومٍ واحد عشرة أجزاءٍ من القرآن، ثم يمرّ عدّة أشهر لا ينظر فيها إلى القرآن فإنّه لن يحصل على التغيير والتحوّل المهم.

عُقد في كتاب **أصول الكافي** بابٌ حول المداومة على العبادة والمواظبة على العمل، ففي إحدى الروايات المنقولة عن الإمام الصادق عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: «إِيّاكَ أَنْ تَفْرِضَ عَلى نَفْسِكَ فَرِيضَةً فَتُفارِقَها اثْنَى عَشَرَ هِلالًا»[1].

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٨٣.



كما رُوي عنه عليه السلام في رواية أخرى أنّه قال: «كَانَ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ صَلَواتُ اللّهِ عَلَيْهِما يَقُولُ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ أُداوِمَ عَلَى الْعَمَلِ وَإِنْ قَلَّ»[1].

إنّ توصية العلماء والعظماء، هي أن يختار الإنسان في بداية العبادة والعمل أسلوبًا مختصرًا، لكي يتمكّن من المداومة والمواظبة عليه، فيتحوّل إلى ملكة، ولا ينبغي أن يختار عبادةً ثقيلةً وصعبة لا يقدر على المواظبة عليها. ثمّ بعد ذلك ينتقل إلى مرحلة أعلى، ويختار عملًا أكثر تفصيلًا، ويداوم على أدائه. ليس الأمر بأن يقوم الإنسان ليلة يحييها بالعبادة والتضرّع والدعاء، ثمّ يصل إلى النتيجة وينتهي كل شيء. لو أراد الإنسان أن يحقق نتيجة من ذكر اللّه، يجب عليه أن يضع برنامجًا للذّكر، ويعمل به على مدى سنةٍ كاملة، سواء كان هذا البرنامج عبارة عن ساعة عبادة في اليوم، أو قراءة عدة صفحات من **القرآن** كل يوم، أو اختيار ذكرٍ ما تحت إشراف ونظر أحد الأساتذة والأولياء الإلهيين. حين يداوم على هذا البرنامج، تصبح العبادة والذّكر بالنسبة له أمرًا سهلًا وميسرًا، حينها يستطيع أن يصرف وقتًا أطول في العبادة والذكر. إنّ بالإعراض عن المعصية والمواظبة على برنامجٍ عباديّ، يُدرك الإنسان أنّ نافذة النور تتّسع أمامه بالتدريج، ويشعر شيئًا فشيئًا أنّه يستطيع أن يكون مداومًا على الذكر، ومتوجّهًا إلى اللّه في جميع الحالات.

إنّ أفضل البرامج العباديّة، هي تلك التي عُرضت في **القرآن الكريم**، نظير توصية **القرآن** بذكر اللّه وتسبيحه في الصباح والمساء والعبادة والسجود في وقت من الليل ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾[2]. هذا الأمر الإلهيّ يمثّل برنامجًا كاملاً لذكر اللّه والارتباط بمبدأ الوجود؛ لا شك أنّ المقصود من مثل هذا التسبيح والعبادة اللذَين يستوعبان شطرًا من الليل، شيئًا أبعد من الصلوات الواجبة، هو عبارة عن الصلوات والأذكار المستحبة التي يقوم بها الإنسان، ويضع لها برنامجًا دائمًا وبعيد المدى.

---

(١) المصدر نفسه، الجزء ٢، الصفحة ٨٢.

(٢) سورة **الإنسان**، الآيتان ٢٥ و٢٦.



لو أنّنا التفتنا إلى تعاليم أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ووصاياهم، لأدركنا طرق السّعادة والفلاح فيها، لكن ممّا يؤسَف له أنّ هممنا الضعيفة، تحرمنا فرصة الاستفادة من هذه التعاليم وهذه الطرق التي ذُكرت في كلمات الأئمة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والعلماء الرّبانيين لبناء الذات. لو أنّ الإنسان بذل الاهتمام الكافي بهذه التعاليم، فإنّه سيصل إلى المنزل المقصود حتمًا؛ مثلما سلك أولياء اللّه وأهل الذّكر هذا الطريق، ووصلوا إلى مرحلة من الكمال الإنساني الرفيع؛ وحسب تعبير الإمام في هذه الخطبة، إنّ اللّه قد اختارهم لنفسه في كل عصر وزمان، وأحاطهم بجزيل عنايته؛ حيث ناجاهم في ذوات أفكارهم، وفتح أمامهم السبل غير المرئية، وفتح أعين قلوبهم وأسماعهم، «فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذٰلِكَ فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِى طُولِ الإقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأهْلِ الدُّنْيَا حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ يَرَى النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لاَ يَسْمَعُونَ»[1]. إنّ أوج هذه الحالة، هو ذاك المقام الذي أخبر عنه أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ، «لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا»[2].

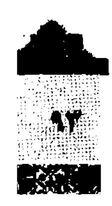
إنّ سبب عجز نفس الإنسان عن إدراك أحوال الآخرة تعلّقه بالبدن وانشغاله بتدبيره وتأمين الاحتياجات الدنيويّة، لكن أهل الذّكر، من خلال المداومة على ذكر اللّه والرياضة وبناء الذات، طهّروا قلوبهم من الكدورات والقذارات الناشئة من التّعلق بالدنيا وحبّها؛ فأصبحت قلوبهم وكأنّها مرآة تجلّي الأنوار الإلهيّة والحقائق الربّانية؛ فانتقشت تلك الحقائق على صفحة القلب. من هنا، إنّ هؤلاء يشاهدون بوضوح طريقَي الهداية والضلالة وسبيلَي النجاة والخسران؛ يختارون بالبصيرة واليقين طريق الهداية، ويسلكونه، ويدعون الناس إليه، ويدلّوهم عليه. هؤلاء يخبرون الناس عن تلك الحقائق التي شاهدوها بعين بصيرتهم، وسمعوها بأسماع عقولهم بعد أن شاهدوها، كما يشاهد الناس الأمور الحسيّة، ويتحدثون عنها.

إنّ أكثرنا غافل عن ذكر الآخرة وعالم البرزخ، إنّما نتذكّر الآخرة حين نزور الموتى، أو حين نقوم أحيانًا ببعض الأعمال من أجلهم. على عكس أولياء اللّه، فإنّهم

---

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، من كلام له ٢٢٢، الصفحتان ٣٤٢ ٣٤٣.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٤٠، الصفحة ١٥٣.



وصلوا إلى تلك المرحلة من الانتباه واليقظة والشهود الباطنيّ، حيث أصبح أكثر توجّههم نحو عالم الآخرة، وأثناء ذلك يلوحون بنظرهم إلى الدنيا. لا شك أنّ وجود هؤلاء نعمةٌ وحجةٌ على الآخرين، فهم يُظهرون حقّانية طريق اللّه والأنبياء؛ ويمكننا أن نجد في كلّ زمان ومكان نموذجًا من هؤلاء الأفراد. كان لدينا في مدينة «يزد» عالِمٌ يُدعى الحاج الشيخ غلام رضا (رحمة اللّه عليه)، كان يظهر من أسلوب حياته وسلوكه، أنّه يرى عالم الآخرة، ولا يتوجّه إلى غيره. كان هذا المرحوم يركب الحمار في مسيره من منزله إلى المسجد، ويشتغل بصلاة النافلة وقراءة **القرآن**، ويحفظ **القرآن**، والقليل من الناس كان يعرف عن حالاته. كان يغفل عمّا حوله، حيث لم يكن يلتفت أحيانًا إلى من يسلّم عليه؛ حين كان يدخل المسجد، ويرى الناس في صفوف الصلاة مشغولين بالمحادثة بدل الاشتغال بالنافلة والدعاء والذكر، كان ينزعج ويقول: «رحم اللّه آباءكم، لماذا جلستم عاطلين قبل الصلاة، أتخافون أن يأخذوكم إلى الجنة؟ قوموا وصلّوا النوافل».

نحن كنّا أحيانًا نقصّر بالأمر بالمعروف، حتّى في الموارد التي يكون واجبًا فيها، وبحجّة عدم التدخل في أمور الآخرين، كنا ننتهي عن الأمر بالمعروف. لكنّ المرحوم الحاج الشيخ غلام رضا، كان ينزعج من ترك الناس لأداء المستحبات، ويفقد صبره، ويذكّرهم بغضبٍ أن يقوموا بصلاة النافلة؛ وسبب انزعاجه وغضبه، هو أنّه كان يرى الحقيقة، ويُدرك كم كان الناس يضيّعون من فرص عظيمة وثمينة من بين أيديهم بهذه السهولة. في نظره، إنّ الذين لا يؤدّون النوافل والأذكار، هم مثل الجائعين الذين ضاقوا ذرعًا بالجوع، وهم بأمسّ الحاجة إلى لقمة خبز، لكنّهم غير ملتفتين إلى وجود وعاءٍ مليءٍ بالأطعمة اللذيذة أمامهم. كان يرى كم كان الناس بحاجةٍ إلى هذه النوافل، وكم كانت هذه النوافل مؤثرةً في دنياهم وآخرتهم، مع ذلك كانوا غافلين عنها. بناءً عليه، من الطبيعي أن تتألم روحه، ويغضب وينزعج حرقةً على الناس، واهتمامًا بمصلحتهم.

كذلك كان العلامة الطباطبائي (رحمه اللّه) نموذجًا بارزًا وعظيمًا، لأولئك الذين أصبحوا من أهل الذّكر والخلوة مع اللّه؛ لم يكن يقطع توجّهه إلى اللّه لحظةً واحدة. كانت أحواله وسلوكياته تكشف أنّ توجّهه كان منصرفًا إلى محلٍ آخر. لم يكن يرغب كثيرًا بمحادثة الآخرين ومخاطبتهم، لأنّ ذلك يقلل من توجّهه إلى اللّه. في أوقات التدريس، لم يكن ينظر إلى طلابه كالعادة، بل كان معظم نظره إلى السقف، وإذا

صادف أن قابله شخصٌ ما، لم يكن العلامّة ينظر إلى عينيه؛ كل ذلك من أجل أن يبقى توجّهه إلى اللّه؛ وفي بعض الأحيان، كانوا يسلّمون عليه، لكنّه كان في عالمٍ آخر، ولم يكن يلتفت، كان قليل الكلام، وكثير الصمت، ودائم الذّكر والتوجّه.



أهمية محاسبة النفس

من الخصائص التي ذكرها الإمام لأهل الذّكر أنّهم يحاسبون أنفسهم، ويمحّصون أعمالهم، لأجل ذلك من الجدير هنا أن نُشير إلى قضية محاسبة النفس وأهميّتها وضرورتها.

لا يخفى على أحد أهميّة محاسبة النفس وضرورتها، فنظرةٌ إجمالية إلى الآيات والروايات الكثيرة الواردة في هذا المجال، توضِح لنا الأهمية والموقعيّة المحوريّة للمحاسبة. أكدّ علماء الأخلاق كثيرًا على هذا الأمر، وأنّ على الإنسان أن يخصّص في نهاية كل يومٍ وقتًا لمحاسبة نفسه وأعماله، وأن ينظر فيما إذا قام بالواجبات الإلهية الملقاة على عاتقه؛ فإذا أدرك بعد التفحّص أنّه قد عمل بواجباته، وكان سلوكه موافقًا لموازين الشرع، فعليه أن يشكر اللّه، لأنّه وفّقه للقيام بالواجبات، وأن يسعى لتكون أيامه التالية وفق هذا المسير الصحيح. أما إذا لم يكن قد عمل بما عليه، أو نقّص في ذلك أو زلّ أو انحرف، فعليه أن يسعى لجبران هذه النواقص من خلال القيام بالأعمال المستحبّة والصالحة، خصوصًا صلوات النوافل، عليه أن يوبّخ نفسه ويستغفر، لأنّه ترك هذه الواجبات، وقام بالمعاصي، كلّ ذلك عسى أن يعفو اللّه تعالى عن سيئاته. ورد عن الإمام الكاظم عَلَيهِ ٱلسَّلَامُ أنّه قال بشأن أهمية محاسبة النفس: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَم يُحاسِبْ نَفسَهُ فِي كُلِّ يَوْم فَإِنْ عَمِلَ حَسَنًا اسْتَزادَ اللّهَ وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئًا اسْتَغْفَرَ اللّهَ مِنهُ وتابَ إِلَيْهِ»[1]؛ ويقول الرسول الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَآلِهِ لأصحابه: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْيَسِ الْكَيِّسينَ وأَحْمَقِ الحُمَقاءِ؟ قالوُا: بَلى يا رَسُولَ اللّهِ. قالَ: أَكْيَسُ الكَيِّسينَ مَنْ حاسَبَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِما بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَحْمَقُ الحَمْقَى مَنِ اتَّبَعَ نَفْسُهُ هَواهُ وتَمَنّى عَلَى اللّهِ الأَمانِيَّ»[2].

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٤٥٣.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٦٧، الصفحتان ٦٩ - ٧٠.



فائدة محاسبة النفس

إنّ من جملة فوائد محاسبة النفس، أنّ الإنسان إذا اطّلع على زلّاته، ينهض فورًا لجبرانها، ولا يسمح لها أن تترك آثارها في روحه ونفسه؛ فإذا لم يحاسب الإنسان نفسه، لن يلتفت إلى ما ارتكبه من معاصٍ، وحين لا يلتفت إلى معاصيه وذنوبه، فإنّ تلك المعاصي ستترك أثرها في روحه، وستترك كلّ معصية نقطة سوداء في قلبه، ويؤدّي تزايد المعاصي إلى أن يغلّف السواد والظلمة تمام قلبه، فلا يبقى فيه نقطةٌ نورانيةٌ واحدة؛ وهذه النقطة هي مضمون بعض الروايات، ومنها ما يمكن أن نُشير إليه في رواية الإمام الصادق عَلَيْهِ‌السَّلَامُ «إذا أَذْنَبَ الرَّجُلُ خَرَجَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْداءُ، فَإِنْ تابَ انْمَحَتْ، وَإِنْ زادَ زادَتْ، حَتّى تَغْلِبَ عَلى قَلْبِهِ فَلا يُفْلِحُ بَعْدَها أَبَدًا»[1].

إذا لم ينهض الإنسان لمحاسبة نفسه، فإنّ تلك الآثار الواقعية والتكوينيّة للمعصية لن تزول ولن تُمحى، وسوف يُصاب قلبه بالسواد والكدورة من دون أن يكون ملتفتًا؛ مثله مثل ذلك الذي يرتدي اللباس الأبيض، فتعلوه البقع شيئًا فشيئًا، لكنّه لا يعتني بذلك، ولا يلتفت إليه، فيصبح لباسه وسخًا وقذرًا؛ ولا شكّ أنّه مع ازدياد هذه البقع، سيصبح اللباس قذرًا ومنفرًا، حيث سيشمئز منه كلّ من ينظر إليه، أمّا هو فلأنّه لم ينظر إلى لباسه، فسوف يبقى غافلًا وجاهلًا بالأمر.

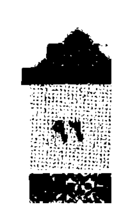
إنّ أكبر العيوب والخسائر التي تنجم عن ترك محاسبة النفس، هي بقاء تلك الآثار الظلمانيّة للمعاصي في الروح، فيزداد الإنسان يومًا بعد يوم تلوثًا، ويصبح قلبه أكثر ظلمانيّةً وسوادًا، ويصبح أكثر بعدًا عن اللّه؛ وفي حال لم يكن ملتفتًا، ربّما يظنّ بأنّه شخصٌ صالح وخيّر، ويتبجّح بنفسه بأنّه كذا وكذا، في حين أنّه في الواقع يسقط كل يوم أكثر فأكثر، حتى يهوي في حفرة الشقاء والخزي ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

يقول العلامة الطباطبائي (رحمه اللّه) بشأن هذه الآيات: «إنّ الخسران والخسار في المكاسب والمساعي المأخوذة لغاية الاسترباح، إنّما يتحقّق إذا لم

---

(١) **الكافي**، مصدر سابق، الجزء ٢، الصفحة ٢٧١.

(٢) سورة **الكهف**، الآيتان ١٠٣ و ١٠٤.



يصب الكسب والسعي غرضه وانتهى إلى نقصٍ في رأس المال أو ضيعة السعي وهو المعبر عنه في الآية بضلال السعي كأنّه ضلّ الطريق فانتهى به السير إلى خلاف غرضه. والإنسان ربّما يخسر في كسبه وسعيه لعدم تدرّب في العمل أو جهل بالطريق أو لعوامل أخر اتفاقية وهي خسران يرجى زواله فإنّ من المرجو أن يتنبه به صاحبه ثم يستأنف العمل فيتدارك ما ضاع منه ويقضي ما فات، وربما يخسر وهو يذعن بأنه يربح، ويتضرر، وهو يعتقد أن ينتفع لا يرى غير ذلك وهو أشد الخسران لا رجاء لزواله.

ثم الإنسان في حياته الدنيا لا شأن له إلا السعي لسعادته، ولا هم له وراء ذلك فإن ركب طريق الحق، وأصاب الغرض وهو حق السعادة فهو، وإن أخطأ الطريق وهو لا يعلم بخطئه فهو خاسر سعيًا لكنه مرجو النجاة، وإن أخطأ الطريق وهو وأصاب غير الحقّ وسكن إليه، فصار كلّما لاح له لائح من الحق ضربت عليه نفسه بحجاب الإعراض وزينت له ما هو فيه من الاستكبار وعصبيّة الجاهليّة فهو أخسر عملًا وأخيب سعيًا لأنّه خسران لا يرجى زواله ولا مطمع أن يتبدل يوما سعادة»[1].

بالالتفات إلى هذا الأمر، إنّ من فوائد محاسبة النفس هو أن يطّلع الإنسان على زلاته، ويسعى للتّخلص منها، ولا يسمح ببقاء آثارها التكوينيّة في روحه، وفي النهاية لن يكون حسابه شديدًا يوم القيامة حين يقف الناس للحساب، ولن يطأطئ رأسه خجلًا وحسرةً. هذه الحقيقة هي التي تحدّث عنها الرسول الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ بعبارتي اللازم والملزوم حيث قال: «حاسِبْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُحاسَبَ فَهُوَ أَهْوَنُ لِحِسابِكَ غَدًا»[2].

إنّ محاسبة أنفسنا على أعمالنا في الدنيا، يهوّن علينا الحساب يوم القيامة، فإذا قام الإنسان بمحاسبة نفسه على أفعالها، وسعى لمعالجة وجبران نقائصه وزلّاته وانحرافاته، فإنّ حسابه يوم القيامة سيكون سهلًا، أمّا إذا لم يفعل ذلك فإنّ معاصيه سوف تتكدّس وتزداد، وتؤدي إلى زيادة مصيبته يوم القيامة. في تتمة

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، مصدر سابق، الجزء ١٣، الصفحة ٣٩٩.

(٢) **بحار الأنوار**، مصدر سابق، الجزء ٧٤، الصفحة ٨٣.



حديثه يقول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ: «وَزِنْ نَفْسَكَ قَبْلَ أَنْ تُوزَنَ وتَجَهَّزْ لِلعَرْضِ الأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُ لا تَخْفى عَلَى اللّهِ خافِيَةٌ»(١).

إنّ ميزان الأعمال ينبع من تصوراتنا الاعتقادية، ونحن نعتقد أنّهم سيضعون أعمالنا في كفّتيّ ميزان الصلاح والفساد يوم القيامة. إذا كنّا نزن أعمالنا، ورأينا أنّ ذنوبنا أصبحت أثقل، فإنّنا سنسعى لتخفيف حملنا وثقلنا. أمّا إذا لم نزن أعمالنا ومعاصينا، ولم نُدرك تأثيرها على روحنا، فإنّه سيأتي ذلك اليوم الذي نُحضر فيه إلى ميزان المحاسبة الإلهية، وهناك سوف نُفتضح ونُبتلى بالحسرة.

كيفيّة محاسبة النفس

كما ذكرنا، ورد الكثير من الآيات والروايات في مجال محاسبة النفس، لكنّها قلّما أشارت إلى تفصيل كيفيّة هذه المحاسبة، وفي هذه الخطبة يفصّل الإمام في كيفيّة محاسبة أهل الذّكر لأعمالهم، فيقول: «فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ الْمَحْمُودَةِ وَمَجَالِسِهِمُ الْمَشْهودَةِ وَقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ وَفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلى كُلِّ صَغِيرَة وَكَبِيرَة أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا وَحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلَالِ بِهَا فَنَشَجُوا نَشِيجًا وَتَجَاوَبُوا نَحيبًا، يَعِجُّونَ إِلى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَم وَاعْتِرَاف»(٢).

لو نظر الإنسان إلى تقصيره وذنوبه كلها، فلعلّه لن يشعرَ بثقلها، لكنّه إذا تأملّ في كل واحدةٍ منها، وتفكّر في تبعاتها الدنيويّة والأخرويّة السلبيّة، فإنّه سوف يشعر بالندم الشديد، ويطأطئ رأسه. لعلّ حديثًا واحدًا يصدر منه قد يقلب حياته أو حياة شخصٍ آخر، فلعلّه يقول شيئًا، يسلب المخاطَب الأمل والنشاط، ويصرفه عن طريق أو عملٍ اختاره، وكم قد يكون للكلام تأثيرٌ إيجابيٌ في بثّ الأمل وتبديل مصير إنسان آخر، ويمنح حياته الحيويّة والنشاط. لهذا، لا ينبغي أن نستسهل أيّ زلّةٍ، ومنها كلامنا غير الموزون.

حين يشعر أهل الذّكر بثقل معاصيهم وتقصيراتهم، ويدركون صعوبة حملها،

---

(١) **بحار الأنوار**، الجزء ٧٤، الصفحة ٨٣.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، من كلام له ٢٢٢، الجزء ١، الصفحة ٣٤٣.



فإنّهم ينشجون بالبكاء، ويصرخون من شدّة الندم في مقام الاعتراف بين يديّ اللّه، ويجزعون؛ لكن فجأة تتنزّل عليهم ملائكة اللّه، الذين أُوكلوا ببيان معالم الهداية ومصابيح الظلمات، فتهدي قلوبهم، وتلقي السكينة فيها. إنّ السكينة هي لطفٌ وهدوءٌ خاص، يتنزّل على عباد اللّه الصالحين حين تحيط بهم الاضطرابات والقلق والبلاءات، وهذه السكينة يُنزِّلها اللّه على قلوب هؤلاء، كي يزول عنهم كل أنواع الاضطراب والقلق، ويستبدلون ذلك بالهدوء والطمأنينة. بالإضافة إلى الروايات، ورد في **القرآن الكريم** عدّة آيات حول نزول السكينة الإلهية على قلوب المؤمنين وعلى قلب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ، منها تلك الليلة التي أراد أن يهاجر فيها النبيّ من مكة إلى المدينة، حيث كان خطر المشركين محدقًا، يمكن أن يتعرضوا له، ويهجموا عليه في أي لحظة، فألقى اللّه سكينته على قلب النبي، ومنحه تلك الطمأنينة. ويقول اللّه تعالى في هذا الشأن: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

مكانة أهل الذكر وحالاتهم المعنوية

«وَفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الْكَرَامَاتِ فِي مَقْعَد اطَّلَعَ اللّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ وحَمِدَ مَقَامَهُمْ»[2]. هذا المقام هو مقام المتّقين في الجنة نفسه ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ * فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾[3]. إنّ الذين يسعون ويكدحون من أجل بناء أنفسهم، والمداومة على ذكر اللّه، والقيام بمسؤولياتهم، ووزن أعمالهم، وملامة واتّهام أنفسهم الأمّارة، والسيطرة عليها وترويضها، وطلب المغفرة من محضر اللّه الرحيم، يصلون إلى المقام الرفيع في عالم الآخرة. كما أنّهم في هذه الدنيا ينالون مقامًا، يحظون بواسطته بالنّعم الوافرة، وينالون من مشاهدته لذّة لا توصف، ويزداد شوقهم إلى الأنس بحضرة الحقّ

(١) سورة **التوبة**، الآية ٤٠.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، الجزء ١، الصفحة ٣٤٣.

(٣) سورة **القمر**، الآيتان ٥٤ و٥٥.



ويتّسع. إنّ كدحهم العجيب يستتبع رضا اللّه؛ وبفضل ذلك يمدحهم ربّ العالمين على منزلتهم ومقامهم؛ فهم يستشمّون رائحة لطف اللّه ورحمته، وتسكن أرواحهم بفضل النسيم العليل لرحمته تعالى وتطمئن، ويرفعون أيديهم بالدّعاء، ويسألون ربّهم العفو والمغفرة، وأن يُنزِل عليهم المزيد من غيث رحمته.

حقًّا، ما هو شعور المؤمنين المتّقين حين يصلون إلى رضا اللّه؟ فنحن الذين لا يتعدّى إدراكنا تلك المحسوسات والمشهودات الحسّيّة، كيف يمكننا أن نصف لذّة تذوّق رضا اللّه؟ لا بدّ لنا أن نعتمد على التمثيل والتشبيه من أجل أن نبيّن شعاعًا ضعيفًا جدًّا من ذلك الإحساس. يعرف جميعنا موقعية وعظمة الإمام الراحل (رحمه اللّه) إلى حدٍّ ما، خصوصًا أولئك الذين شاهدوه عن قُرب، أو كانوا من تلامذته لسنواتٍ عديدة، ونالوا فخر هذا التتلمذ، وتعرفوا على شخصيّته أكثر؛ إذا توجّهنا والتفتنا إلى عظمة الإمام ومقامه، فلنتصوّر لو أنّ شخصًا كان في محل عمله، يقوم بوظيفته، ثم شاهد الإمام فجأة يقف أمامه، وهو يبتسم له ابتسامة الرضا، فأي لذة وسرورٍ سيشعر به هذا الإنسان؟ لا شكّ أنّه قد يفقد الإحساس بنفسه، ويُغشى عليه من شدّة الفرح والسرور، فلا يقدر أن يعي ما يجري عليه، أو يصف بلسانه عمق الشعور واللذة التي تملّكت روحه. لو أنّه أدرك للحظةٍ واحدة وجود إمام الزمان عَلَيهِ‌السَّلَامُ، وهو يقف إلى جانبه مع بسمة الرضا، فأيُّ إحساسٍ سيشعر به؟ هذا في حين أنّ الإمام ليس سوى عبد من عباد اللّه الخاصّين، فكيف سيكون شعور من أدرك مقام رضا اللّه؟ لا شكّ أنّ حالة اللذّة والسرور التي ستتملّك العبد نتيجة وصوله إلى رضا اللّه، ستكون بحيث أنّها ستنسيه كل أنواع العذابات والآلام، التي عاشها لسنوات، وكانت من أشدّ أنواع العذابات والآلام، وسوف يمتلئ وجوده بالفرح والسرور، بحيث لا يبقى فيه ذرّة غمٍّ وأسى.

يستكمل الإمام عَلَيهِ‌السَّلَامُ كلامه: «رَهَائِنُ فَاقَة إلى فَضْلِهِ وَأُسَارى ذِلَّة لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الأسى قُلُوبَهُمْ، وَطُولُ الْبُكَاءِ عُيُونَهُمْ»[1]. لا يُتوقّع من ذاك العبد الذي أزال ذكر اللّه والتوجّه إليه حجب الظلمة من أمام بصر قلبه، وشاهد الحقائق الوجودية الأصيلة سوى هذا. فحين يشاهد تقصيره، ويقف عند ضعته وحقارته

(١) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، من كلام له ٢٢٢، الجزء ١، الصفحة ٣٤٣.



وذلّته بين يدي عظمة اللّه المطلقة، ينبغي أن يتلاشى وجوده، وينهض لملامة نفسه وتأديبها، ويصبح في حالة من البكاء والغمّ والحزن المستمر. لو لم نأسف على أعمالنا، ولم ندع للحزن طريقًا إلى القلب بسبب ما ارتكبناه من جفاءٍ بحقّ أنفسنا، وما وصلنا إليه من حرمانٍ من لطف اللّه ورحمته وعناياته، ولو لم نسعَ لتطهير قلوبنا ووجودنا بأمطار البكاء من تلك الشوائب والدّناءات، فينبغي أن نكون بصدد معالجة أنفسنا المريضة. كانت سيرة نبي الإسلام صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ وأولياء اللّه، أنّهم كانوا يبكون دائمًا من غمّ ألم الفراق، ويعتريهم ذلك الحزن الطويل، فيملأ قلوبهم، ويخرّون إلى الأذقان سجّدًا، خضوعًا للّه تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1].

ثمّ «لِكُلِّ بَابِ رَغْبَةٍ إِلَى اللّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لا تَضِيقُ لَدَيْهِ الْمَنَادِحُ وَلاَ يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ»[2]. إذا كنت الآن تريد الخير والصلاح لنفسك، فمن اللازم أن تحاسب نفسك، وتنظر إلى زلّاتك وتقصيرك والخطايا التي صدرت منها، وتسعى لجبران ذلك، وتطلب العفو والمغفرة من ساحة رحمة اللّه، واترك حساب غيرك، فهذا لا ينفعك، لأنّ هناك من يحاسب هؤلاء على سلوكهم وأعمالهم. «فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ»[3].

(١) سورة **الإسراء**، الآيات ١٠٧-١٠٩.

(٢) **نهج البلاغة**، مصدر سابق، من كلام له ٢٢٢، الجزء ١، الصفحة ٣٤٣.

(٣) المصدر نفسه، الجزء ١، الصفحة ٣٤٣.

ذكــر الله

«وَإِنَّ لِلذِّكْرِ لأَهْلًا أَخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلًا، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أَيَّامَ الْحَيَاةِ، وَيَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ فِي أَسْمَاعِ الْغَافِلِينَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ وَيَأْتَمِرُونَ بِهِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأَنَّمَا قَطَعُوا الدُّنْيَا إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ فِيهَا فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذلِكَ، فَكَأَنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أَهْلِ الْبَرْزَخِ فِي طُولِ الإِقَامَةِ فِيهِ، وَحَقَّقَتِ الْقِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لاَ يَرَى النَّاسُ وَيَسْمَعُونَ مَا لاَ يَسْمَعُونَ».

الإمام علي بن أبي طالب (ع)

يصبح الذكر ذا قيمة إذا تلازم مع التوجّه، وحضور القلب، وحبس الإنسان نفسه عن المعصية والذنب؛ فالذي ينشغل بالمعصية وارتكاب الذنوب لا يمكن أن ينهض بالذكر الواقعيّ، كما أنّه ليس من الممكن أن تصدر المعصية من ذاك الذي يتوجّه إلى الله، ويرى الله حاضرًا وناظرًا. فحين تصدر المعصية من الإنسان، يكون ذلك بسبب الغفلة عن الله، ونسيانه إياه؛ في مثل هذه الحالة، لا فرق بين انشغال لسانه بالذكر أو عدمه. فالذاكر لله هو الذي يطيع الله، والغافل هو الذي يعصي الله، وإن كانت صلواته وصيامه كثيرةً.




ISBN 978-614-440-091-3